
عبد الوهاب الأسواني
اللسان المر
دار المعارف
عبد الوهاب الأسواني
اللسان المر
دار المعارف

اللسان المر

عبد الوهاب الأسواني



دار المعارف

اللسان المر
و
ابتسامة غير مفهومة

« لم يشأ الأستاذ عبد الوهاب الأسوانى أن يجارى بعض رواد القصة المعاصرة فى الإغراق فى الجنس . والرمز . والتعقيد . واستخدام الجمل القصيرة . والميل إلى القتامة . لكنه استمسك بميزتين اختص بهما . واحتل بفضلهما مكانة فى حياتنا الأدبية : الميزة الأولى وضوح الأسلوب ونصاعته وتسلسله وتدفقه . والثانية أنه لا يتحدث إلا عن تجربة » .

هذا ما كتبه الأستاذ يحيى حقى فى هاتين الروايتين القصيرتين . حيث يقدم المؤلف فى (اللسان المر) بيئته الأسوانية بحب ورفض معاً . ويقدم فى (ابتسامة غير مفهومة) مجتمع المدينة الصاخب بكل ما يتميز به من تناقضات غير مفهومة . .

تصميم الغلاف : **شريفة أبو سيف**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

١

زغرودة طويلة جاءت من أول النجع . . تساءلت النساء ، ولغط الصغار ، ورفع الرجال فئوسهم ولم ينزلوها ، ثم انتشر الخبر :

– شيخ العرب وصل !

رأت الجموع المحتشدة على الشاطئ المركب الشراعى يحايل الريح فى منتصف النيل ! فى مقدمته رجل أسمر ، شديد السمرة ، على رأسه عمامتان من « البفتة » كل عمامة تزيد على خمسة أمتار !

لوحت له الأيدى ، وزغردت النساء ، وهتف الأطفال باسمه ، وأطلق أحدهم ثلاث رصاصات من مسدسه للتحية .

جبل عال متموج على الشاطئ الآخر ، سفحه أخضر ، وقمته بيضاء ، برزت فى أحضانه مدخنة صغيرة كأنها تتحداه !

رسا المركب ، وقفز الرجل إلى الشاطئ فى رشاقة . . قصير القامة ، عريض الصدر ، عيناه ضيقتان حادتان . . أحاطت به الجموع ، تعانقه ، تقبل وجهه ، تتعلق بعباءته السوداء ، تمسك بجلاليبه الصوفية الثلاثة التى يرتديها واحدة فوق أخرى تحمد الله على وصوله .

تصاعدت الزغاريد من كل بيت مر أمامه الموكب ، إلى أن توقف أمام مبنى من الطوب الأسمر ، تتقدمه ثلاثة أعمدة حمراء وفناء واسع مكشوف .

جاءت من المركب حقائب كثيرة وصناديق كبيرة من الورق المقوى . .

وضعت على « بروش » من السعف ، ثم فتحت ، فظهرت قطع القماش الملونة .

تناول الرجل قطعة قماش صفراء وأعطاها رجلاً بجواره :

– ثوب لزوجتك يابن العم .

– أكثر الله خيرك ياشيخ العرب .

أمسك بقطعة بيضاء وأخرى حمراء ، وأعطاها شابًا فى السابعة عشرة :

– قميص لك ، وجلابية لأختك يابن المرحوم .

وتوالت الهدايا ، وتوالى الوافدون ، كل ينتظر دوره . وفرغت الحقائب أوكادت ، وبدأ فى فتح الصناديق الورقية .

– ثلاث صابونات لأولادك ياخالة . . باكو شاى لك يابن أخى . . علبة سجائر لك ياعم .

كان القماش من نصيب أهله الأقربين ، والصابون والشاى لبقية فروع القبيلة .

انتقلت العيون من الحقائب ، وتسلطت على وجه خمرى شديد النعومة يتوسطه أنف دقيق ، وشفتان على شكل القلب .

فتح ذراعيه وهتف بصوت حنون :

– أهلاً « بتول » . . أهلاً بالوجه المبروك !

دار عليها بذراعيه وضمها إلى صدره . . وقالت له امرأة طويلة ، بارزة عظام الوجه ، تضم تحت إبطها ثوبا أصفر :

– ربنا يحفظك لنا يازينة قبيلتنا .

أحس بنهدى الفتاة المتمردين فى صدره ، فسرت فى جسده رعدة ! أمسك بذقنها الناعم ، وقبلها فى خدها . . نسى نفسه وطالت القبلة أكثر مما يجب !

فأطلقها بعصبية ، وتناول قطعتى قماش وقال لها :

– واحدة لك ، وواحدة لأمك يابنت الأخ .

افتر ثغر الفتاة عن أسنان جميلة شدت أنظار الواقفين . . استدارت ؛ لتخرج فتبعتها الأنظار . . شالها القطيفة الأحمر المتآكل الأطراف ينسدل على قامة سمهرية وساقين برونزيتين ممتلئتين ، وقدمين كبيرتين حافيتين . حينما توارت عن الأنظار عادت إلى الواقفين عقولهم ، فاتجهت أنظارهم إلى الحقائب !

ظهر الحزن على وجه الرجل . . سمرته تحولت إلى سواد حينما اكفهر وجهه . . احمرت عيناه ، وقال لنفسه : أنت رجل ناقص ، شاب ذقنك ولم يشب عيبك ! تضم بنتاً من سن أولادك ! تعصرها على صدرك ، تضايق خدها الناعم بشعر ذقنك النابت ، ثم تزعم أنك أصيل النسب ، وأن جدك الأكبر كان من أصحاب رسول الله ! . ثم هاج فجأة وقال للواقفين :

– اخرجوا من « ديوانى » يا أسوأ قبيلة فى البلد ، يا « زبالة » العرب ، ياغنم !

خرج أكثر الواقفين ! بعضهم خرج ساخطاً ، وبعضهم طأطأ رأسه وسار فى صمت ، وبضعة أشخاص تحركوا خطوات ، وتوقفوا قرب المدخل .

المرأة الطويلة بارزة عظام الوجه لم تتحرك . . اختلج أنفها الطويل المقوس ، واحمرت عيناها الواسعتان ، ودارتا فى محجريهما . . التفت إليها وقال فى حدة :

– امشى من قدامى يا امرأة !

انفجرت المرأة دفعة واحدة . . ضمت بيسراها طرف عباءتها السوداء الخشنة ، ومدت سبابة يمناها فى وجهه .

– قبيلتنا غنم ياشمروخ يابن زينب العرجاء ؟ . . امتلأ جيبك بالنقود ، ونسيت أمك تحمل طبقها فى يدها ، تدور على البيوت ، تشحذ من كل بيت لقمة !

– أمى أنا يامغربية يا بنت كذاب القبيلة ؟

– من غير أمك ؟

– أمى كان لها الفضل عليكم جميعاً يا « زبالة » العرب ! . كل رجالكم ونسائكم أكلوا من صنع يديها !

– الذى قال لك هذا الكلام ضحك عليك ، ليأخذ منك ثوبين وقطعة صابون ! أصلك وفصلك أعرفه أنا ! كانت أمك – الله يرحمها ويسامحها ويدخلها الجنة – لاتلبس غير الثياب المرقعة ! ولاتأكل فى اليوم غير طقة واحدة !

– أنت (تقولى) هذا الكلام لأنها كانت أجمل من أمك ومن خالاتك وسبقتهن فى الزواج يابنت كذاب القبيلة !

– وكيف عرفت أنها جميلة وهى التى ولدتك من هنا ، وماتت من هنا يافقرى الوجه يا مر اللسان ؟

وأدخلت يدها تحت عباءتها ، وسحبت الثوب الأصفر من تحت إبطها ، وقذفته فى وجهه !

– خذ ثوبك اكس به واحدة من نسوانك ، وأقفل فمك عن سيرة القبيلة التى لولاها ما جاء لك ذكر !

واندفعت خارجة . . ووقف هو ساهماً للحظات ، والواقفون قرب المدخل يرمقونه فى إشفاق . . واندفع أحدهم من الخارج ليقول :

– العمدة وصل .

ودخل رجل طويل القامة . . يرتدى جبة وقفطاناً وعمامة صغيرة . . انحنى قليلاً ، ووقف . « شمروخ » على مشطيه ، وتعانقا . . سلامات ياعمدة ؟ . . حمداً لله على السلامة ياشمروخ . . كيف حال النجع ياعمدة ؟ . . وما أخبار بلاد الله يا شمروخ ؟ . .

وجلسا على أريكة خشبية خضراء ، متقاربى الوجهين ، وعمامة « شمروخ » تحول بينهما .

وتناول شمروخ لفافة خاصة ، أعطاها العمدة باسماً :

– ثوب لك ، وثوبان لنسوانك يا عمدة ، وخمسة ثياب للأولاد !

– نرده لك فى المسرات يا شمروخ .

وتوافد الرجال ، وفرشت عشرات البروش فى ساحة الديوان الواسعة ، وجلس الشبان عليها ، وجلس الكبار على الدكك وأسرة الحبال ، وتصاعد الدخان من كل المواقد ، استعداداً للعشاء الجماعى للقبيلة .

وسأل شمروخ عن شيخ البلد « علام » فقالوا له إنه ذهب لزيارة أحد النجوع البعيدة ، وسيدركنا عند صلاة المغرب ، فأرسل له هديته الخاصة مع أحد الشبان .

وسقط نصف قرص الشمس وراء النخل البعيد . .

. . ودخل غلام أسود ، جذاب الملامح ، عليه قميص أبيض وسروال من « العبك » يصل إلى قدميه . . شق الجموع فوق البروش حتى وقف أمام شمروخ ، وصاح بصوت رفيع غاضب :

– توزع حاجاتك ومحتاجاتك على النسوان وتنسى الرجال ! تظننى صغيراً فى

٣

– عبد الغنى الجوابرى لايهتم بهذه الأشياء . . ربما لا يعرفها أيضاً . . أنا شخصياً أعتبره غير موجود !

برز عرق أسود فى منتصف جبهة شمروخ . . تجاهل العمدة وخاطب الشيخ (علام) قائلاً فى حنق :

– أنت تعرف السبب ، لكنك تداهن ! الجوابر يقولون إن نسبنا مشكوك فيه ! ويرفضون الزواج منا . . وأنت تداهن ! لماذا لاتكون صريحاً فى كلامك ؟

انتبه القريبون إلى حدة المناقشة ، فأداروا أعناقهم . . وقال العمدة بلهجة توحى بأنه يجد صعوبة فى السيطرة على نفسه :

– لاتعكر دمك بسبب مسألة فارغة . . حمدًا لله على سلامتك .

انفعل شمروخ . . ضرب حاجز الأريكة وقال مهتاجاً :

– طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث . إذا لم يتم الزواج ، وبكل احترام أعمل كل ما فى رأسى !

توقفت الأحاديث الجانبية فى الحلقات القريبة والبعيدة . . تضاعفت التجاعيد الدقيقة على وجه الشيخ علام البرونزى وتوتر عنقه النحيل . . قال بلهجة معاتبة :

– غلطان أنت . . على كل حال نرسل فى طلب الشيخ فراج يرد لك اليمين .

– طبعا ستقولون إننى مجنون ! من يدافع عنكم يا « زبالة » العرب ، يا غنم تقولون عنه مجنون . . الجوابر يشككون فى نسبكم ويتركون بنتكم ؛ ليقول الناس عنها ويعيدوا ! فإذا غضبت لكم فأنا مجنون ! طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث . . إذا لم يتزوج معوض بن عبد الغنى الجوابرى بتول بنت محمد

على السوالمى أخلى الجوابر يندمون طول حياتهم !

رفع العمدة لفافة الثياب ، المهداة إليه ، من فوق حجره ، ووضعها على الأريكة ووقف . . فتح فمه ؛ ليقول شيئاً ؛ لكنه عاد وأقفله وخطا إلى الخارج والأنظار تتبعه . . وقال له الشيخ علام فى رجاء :

– ارجع بالله عليك يا عمدة !

لكن هذا استمر فى سيره دون أن يرد . . وقام بضعة أشخاص من كبار السن وخرجوا وراءه . . ثم قام بضعة أشخاص آخرين ، وتلفتوا حولهم ، ثم هموا بالخروج ، لكنهم عادوا وجلسوا فى صمت . . وقال الشيخ علام لشمروخ :

– نرد لك اليمين ، الله يبارك فيك وفى ذريتك . . الموضوع كله لا يزيد عن . . . .

قاطعه شمروخ بلهجة غاضبة وهو يلوى شفته :

– متى تتخلى عن المداهنة ؟

تراجع الشيخ علام برأسه إلى الوراء ، فمالت العمامة الكبيرة بالعنق النحيل إلى الخلف بأكثر مما أراد وقال لاهثاً :

– (زمان) كنا نسامحك ونقول : هو مجنون : لأنه صغير السن . . أنت الآن فى سن الأربعين التى نزلت فيها الرسالة على رسول الله . . نرسل فى طلب الشيخ فراج ونرد اليمين . . والله بالله يا شيخ لو خالفتنى أقاطع بيتك وديوانك ، ولا أدخل عندك طول العمر !

وقف شمروخ كأنه سيخطب . . لوح بيده صارخاً دون أن ينتبه لعباءته تسقط وراءه :

– أنت مداهن والعمدة مداهن وكبار قبيلتكم تحولوا إلى مداهنين ، وأنا فى نظركم مجنون يحلف بالطلاق من غير تفكير ، وأنتم كل شغلتكم أن تردوا له اليمين يا « زبالة » العرب يا غنم ! طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث ، إذا لم يدخل معوض بن عبد الغنى الجوابرى على بتول أخلِّى الصراخ يُسمع فى سابع بلد !

لملم الشيخ علام عباءته على كتفيه ووقف . . تلفت حوله كأنه يبحث عن شىء وهو يتمتم :

– اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

وخطا إلى الخارج فى عصبية أوضحها كبر سنه . . لكنه توقف عند الباب ، والتفت وراءه قائلاً ورعشة الغضب تلف صوته :

– أنت تريد خراب البلد يا فقرى الوجه يامر اللسان يابن زينب « المطينة » !

* * *

٢

تحت بضع شجرات على الشاطئ ، وقفت « بتول » تنتظره . . رأته يدخل غابة النخل بحماره الأنيق السريع . . ثوبه أبيض وعمامته بيضاء وحماره أبيض . . يظهر فى غابة النخل ويختفى ويظهر ويختفى كلمع البرق . . توغل فى أعماق الغابة وهبط . . علق اللجام فى جريدة غليظة يابسة لنخلة واطئة واستدار . . رأته يتلفت حوله فى حذر ، ويبحث عنها بعينيه . . صعدت مع الشاطئ بضع خطوات فرآها . . أسرع إليها الخطى وهبطا معاً . . جرتها ملقاة تحت شجرة وابتسامتها تزغرد . . أمسك بيدها :

– من رآك يا بتول ؟

– خائف ؟

– أبناء قبيلتك يا بتول . . أبناء قبيلتك . . آه لو رآنى أحدهم .

– أنا لا أخاف من الجن !

– كلام يا بتول . . كلام . !

– أنت خواف مثل أهلك .

– أنا موافق . . لكن من رآك ؟

أشارت إلى جرتها :

– هذه الجرة ، وغابة النخل ، وبحر النيل !

تلفت حوله فلم ير غير الشاطئ الشاهق ، والجبل الأبيض بسفحه الأخضر

وقمته البيضاء ، تتحداه المدخنة على الشاطئ الآخر ، وجزء من مبنى المدرسة الابتدائية عند منحنى النهر .

– أنا أريدك (أحبك) يا بتول !

– وأنا أريدك يا معوض .

– ربنا يخليك ويجمعنا فى بيت الحلال يا بتول .

– يعلى مقامك ويشد حزامك ويشق لك فى البحر طريق يا « معوض »

غزت وجهه الأسمر سحابة من الهم ونظره يقع على رقعة مصفرة على كتف ثوبها باهت الحمرة :

– شيخ العرب أعطاك هدية ؟

– عمى شمروخ ؟ . . أهدى لى ثوبين . . واحد لى وواحد لأمى .

– شيخ العرب رجل طيب . . عيبه الوحيد ، أنه يحب الافتخار .

– أنا أريده .

– وأنا أريده . . لكنه يحب يفتخر .

ضحكت بتول وقالت :

– مرة جاءه شحاذ غريب يغنى على الربابة ، وقال له : أنا عملت فيك قصيدة شعر أنت وقبيلتك « السوالم » وغنى له أولها :

السوالم ناس عُمَدْ من زمان .

وشيخ العرب « شمروخ » رجل عَظْمان !

قبل أن يسمع آخرها أهدى له حماره الأسود . . وبعد ذهاب الشاعر قال له شيخ البلد :

« ماذا يقول الناس عنك إذا رأوا حمارك الغالى تربية العز ، يركبه رجل

يشحذ على الربابة ؟ » . . فركض وراء الشاعر وأدركه بمركب فى منتصف النيل . . أخذ منه الحمار وأعطاه نعجة !

– أقول لك يحب يفتخر . . مرة رأيت واحدة من قبيلتكم تطلب منه عشرة قروش ، فأدخل يده فى جيبه وأخرج منه جنيهاً . . أعطاه المرأة وقال لها : « حظك ! . . مادام خرج على حظك ، فهو لك » . . رجل فشخار !

– لا تقل فشخار يا معوض يا بن عبد الغنى الجوابرى . . شمروخ عمى .

– هو من قبيلتك وليس عمك يا بتول يا بنت محمد على السوالمى . . أنت وهو تجتمعان فى الجد الثانى والعشرين !

هزت رأسها مستنكرة :

– أبدا والله . . فى الجد العشرين !

سحابة ضئيلة بدت غريبة فى السماء الصريحة ، تعبر النيل . . وضع كفه بكمها الأبيض العريض على كتفها ، فمالت قليلا وانزلقت كفه وقالت فى دلال :

– اقعد ساكت يا معوض يا بن عبد الغنى الجوابرى .

– أريدك يا بتول .

– وأنا أريدك . . لكن اقعد ساكتْ .

نسمة خفيفة تمايلت معها حقول الترمس ، داكنة الخضرة ، المتدرجة مع الشاطئ الصاعد .

– معى حتى الآن عشرون جنيها . . بعد محصول القمح ومحصول البلح ومحصول المانجو ، أكون جمعت ما يجمعنا فى بيت الحلال غصباً عن أبى وعن كل الناس يا بتول .

- سمعت بما قاله عمى شمروخ يا معوض ؟

- ماذا قال ؟

- طلاق ثلاثة من نسوانه الثلاث . . إذا لم تتقدم للزواج منى الآن يجعل الصراخ يسمع من سابع بلد !

تلفت حوله فى ذعر . . رأى ثعلبين يظهران فجأة ثم يختفيان فى حقول الترمس . . قال لها بصوت مخنوق بالغضب :

- ولماذا يتدخل شمروخ فيما لا يعنيه ؟

- عمى طبعاً ويخاف على مصلحتى .

- أبداً . . هو يحب الجنازات كى يشبع فيها مناحة . . يفتح المشاكل ويملأ الدنيا بالصراخ ليتحدث عنه الناس . . ماله هو ومالنا ؟

- أنت زعلت ؟

هدوء صوتها الناعم مع نظرتها الضارعة أنْسَياه انفعاله . . تنهد . . سمعها تقول فى ضعف :

- أريدك يا معوض . .

رأى الشفتين فى شكل القلب ، تنفرجان قليلاً فوضع يده على كتفها . . احمرت وجنتاها وتهدجت أنفاسها ، ومال رأسها يستكين على صدره .

ضمها إليه بقوة ومال على فمها وأطبق عليه بأسنانه ، فدفعته بعنف ، وابتعدت ، ويدها تتحسس شفتيها ، وتعبيراتها توحى بالألم !

- إن شاء الله يأكلك تعبان يا معوض وتموت !

- سامحينى يا بتول .

بدت كالنمرة الصغيرة المتوثبة عندما انفعلت ومدت سبابتها فى وجهه :

– وحياة بحر الله الطاهر . . ما أخليك تشوفنى تانى .

قال فى ضراعة :

– محقوق يا بتول . . سامحينى يا أخيّة .

انشغلت فى تحسس شفتيها ، ومضى يتطلع إليها وقد بدا على وجهه تعبير الشعور بالذنب . . رأى الألم يعتصر وجهها الحلو ، وقال لنفسه : يا ليتنى مت . . انزلقت عيناه على الجسد بديع التكوين ، فالساقين الطويلتين الممتلئتين ، فالقدمين الكبيرتين المشققتين ، وقال لنفسه : أسرع بجمع النقود قبل أن يخطفها العرسان منك .

– محقوق أنا يا بتول .

. . وشت عيناها الواسعتان السوداوان بتعبير الأسف ، وهى تتأمل عوده الفارع ، وأنفه الوسيم ، وخصلة الشعر المعقدة مثل كرة الشوك ، تطل أسفل عمامته شبه الحريرية ، ويده ممدودة فى الفراغ تتضرع ، والهواء يلعب بكمها الحريرى ناصع البياض .

– خواف أنت مثل أهلك ، لكنى أريدك يا معوض .

– وأنت مجنونة مثل أهلك وأنا أريدك يا بتول .

– أهلى أنا مجانين ؟ . . أهلى أعظم من أهلك . . عندما يموت عندكم رجل تبكون عليه قليلاً ، وتدفنونه . . حتى العزاء عندكم لا طعم له . . أما نحن فالفارق كبير . . ننزل كلنا إلى « المناحة » عليه . . الكبار والصغار والرجال والنساء . . الطبول تضرب عليه سبعة أيام حتى إننى سمعت أن شيخكم القديم قال قبل أن يموت : « يا ليتنى كنت من « السوالم » ؛ ليشيعونى إلى مقرى الأخير بما يليق بى ! »

قالت ذلك وضربت قدمها بالأرض ، فزقزق خلخالها الردىء الفضة . .

فقال لها باسماً كأنه تذكر شيئاً :

– ولّفت (آلّفت) فيك قصيدة شعر.

نطق كلمة (شعر) بضم الشين.

صفقت بيديها وضربت الأرض بقدمها قائلة بسرعة :

– قول يا معوض .

مد عنقه إلى الأمام وغنى . . كان صوته خافتاً وطرف عمامته يهتز مع اللحن :

يا أمّْ خلخال فى الساق يرنّْ .

غابات وأجراس تدنّْ .

أنا فى غرامك راكبنى جنّْ .

من دى الحالة – أوْلى انسجنْ

الصوت مقبول واللهجة مزيج من البدوية والصعيدية والسودانية . .

فركت بتول كفيها . ولمعة خفيفة ذكية تبرق فى عينيها كأنها تتخيل نفسها تغنى لصديقتها « آمنة » ما قيل فيها :

– قولها ثانى يا معوضْ .

وعاد يغنى فى شغف على حين كانت شفتاها تتحركان للحفظ وعيناها تبرقان فى شقاوة .

– أنا فكرت أقابل (أبوك) يا بتول . . أقول له احجز لى بتول حتى أستكمل النقود ويكون هذا سرًّا بينى وبينه .

تنهدت وهى تقول :
– أمى أفضل منه فى هذه الناحية .
– لكن أمك امرأة . . إذا تقدم لك أى واحد فلن تستطيع رفضه بدون تبرير .
– أبى لا فائدة منه . . منذ تزوج المرأة الجديدة هجر النجع وأقام عندها . . حتى نفقاتنا نحصل عليها بالقتال ! اتفق مع رجل من رجال القبيلة أحسن .
– لا . . أقابل (أبوك) أفضل .
– هات واحداً من رجال قبيلتك ، واتفق أنت وهو مع واحد من رجال قبيلتنا .
– كلهم رفضوا . . أعمامى وأولاد عمى الكبار وكلهم . . ولو ذهبت وحدى لأى واحد من قبيلتك فسيقول عنى صغير السن ، ويتكرر ما حدث . سأذهب لمقابلة (أبوك) أحسن .
شبكت أصابع يديها أمامها وقالت فى ضيق :
– أبى لا فائدة منه قلت لك !
انتبها على مركب شراعى صغير ، يقوده غلام أسمر ، على رأسه طاقية ملونة جديدة ، وثوب قديم ملىء بالثقوب ، يدور بالمركب ليتفادى صخرة كبيرة تمتد فى النيل ، لها شكل وحش أسطورى .
تراجعا إلى الوراء ، وتواريا وراء شجرتين ، لكن الغلام لمحهما ، فنهض واقفاً ، والدفة بين ساقيه ، ووضع كفه على قلبه وقال بصوت رفيع متوجع :
– آه من نار الغرام يا جماعة . . طحنتنى وأكلتنى وبلعتنى فى بطنها والله يا ولاد الخال !

ثم وضع يده تحت أذنه ، وأطلق صوته بموال « أحمر » يشكو فيه الحبيب الذى يعتقد أنه صغير السن ويتجاهله على حين أنه شاب قبل الأوان ؛ لأنه يعرف أشياء لا يعرفها الكبار أنفسهم !

وما لبث أن توارى فى منحنى النهر ، فخرجا وهما يتنفسان الصعداء ؛ لأنه ليس من قريتهما !

- أقابل (أبوك) وإذا اعتبرنى صغير السن ، وطلب أحدا من أهلى.. فسأذهب إلى أبى ، وأهدده بأننى سأقتل نفسى إذا لم أتزوج بتول !

- طيب .

- سأخبرك بالنتيجة .

- متى ؟

- بعد يومين . . فى مولد الشيخ عامر .

- وكيف أراك فى زحام المولد ؟

- أنتظرك فى الدرب الذى شرق المقام . . فى اللحظة التى يقول فيها مؤذن الظهر « الله أكبر » .

- طيب .

- أوهمى كل جماعة من البنات أنك تسيرين مع جماعة أخرى . . وهناك زحام طبعاً .

- طيب .

فى غابة النخل . . كان ثلاثة من تلاميذ المدرسة الابتدائية ، يدورون حول الحمار الأنيق بسرجه ذى القطيفة الخضراء . .

تلفتوا يمنة ويسرة ببنطلوناتهم الصفراء ، المثقوبة فوق الركب ، وقال أطولهم :

– معوض بن عبد الغنى الجوابرى ، طلقْ بتول ، ومع ذلك يأتى فى بجاحة ليربط حماره فى نخل قبيلتنا . . كأن قبيلتنا خلت من الرجال ، أوكأننا متنا !

ووقفوا فى شبه دائرة ، يتآمرون برءوسهم المحلوقة بالموسى ، وأعناقهم الرفيعة السمراء . . ثم لوحوا للحمار بأيديهم حتى ابتعد عن النخلة . . وحلوا حزام السرج ، وأعادوا ربطه من جديد ، واستغرق هذا منهم وقتاً طويلاً . . بعدها تواروا وراء بضع نخلات متلاصقة ينتظرون صاحب الحمار !

جاء معوض يدوس على نبات السعدة الهش الزاهى الخضرة بحذائه الأنيق ، وبقع الشمس المستديرة تسقط على صدره من أعلى الغابة ، فتلمع معها صدريته المخملية السوداء .

أمسك باللجام ، وأدار طرفه على كف يسراه ، وقفز إلى أعلى فى مهارة المعتد بنفسه ، وجلبابه الحريرى الأبيض يطير معه كالمظلة . . لكنه فوجئ بالسرج ينزلق به إلى الناحية الأخرى ، وبنفسه مطروحا على ظهره !

وانطلقت ثلاث صفارات صغيرة تضحك فى شماتة دون أن يراها ! فقال فى غيظ وهو يقف ويتأمل ظهر جلبابه الذى تحول إلى الأخضر الفاقع :

– الحق على أمهاتكم يا قبيلة غجر !

* * *



– أنا مسكين يا امرأة . . مسكين . . من أين لى الفلوس لأزوجه ؟ . . من أين ؟ . . ما الذى فعله حتى أزوجه ؟ . . عمره سبع عشرة سنة ولم يفعل أى شيء غير نهب أموالى ! طول النهار يلبس قمصان الكشمير وجلاليب الحرير وقفاطين الشاهى ، ويدور على النيل يحملق فى البنات الخسرانات ، ثم فى آخر المطاف يأتينى ليقول لى : إنه يريد الزواج من بنت محمد على السوالمى ؟

قالت الزوجة بنبرة باكية :

– تسببت فى موت أخيه ، وتريد أن يموت هو الآخر ، وأقعد أنا بالملابس الحزينة طول عمرى !

– أولادك لهم عقول مثل عقول أخوالهم ! . ماذا أفعل لهم ؟ . . واحد يقول لى يريد الزواج من بندر «كوم أمبو» والآخر يريد الزواج من بنت محمد على السوالمى . . عجائب ! وبنت عمهم ؟ . . مالها ؟ . . يتيمة ومسكينة ولن تكلفنا كيلة غلة !

– ولدى الكبير قتل نفسه ، والولد الباقى تريده أن يقتل نفسه !

– وبنت عمه يا امرأة ؟ . . هه ؟ . . أنا أتعب وأبوها الله يرحمه يموت من شدة التعب ، ثم يأتى واحد لا نعرفه يشاركنا فى نصف القيراط والنخلتين والشجرتين من غير تعب لأن ابنك عشق بنت محمد على السوالمى ! . . ثم من أين لى المال لأزوجه ؟ . . أنا مسكين يا امرأة . . والله لو تعلمين حالى

لتعجبت ! كيف أعيش حتى الآن والهموم ترقد فوق قلبى ؟ . أنا مسكين . . لا أحد يشفق علىّ ولا أحد يرأف بحالى غير المرحومة أمى ! كانت الله يرحمها هى الوحيدة التى ترأف بحالى .

ومد كم قميصه الأبيض الذى تحول إلى رمادى ، وقربه من وجهه وانخرط فى البكاء !

وقامت المرأة . . نفضت جلبابها الأزرق ، لباس الثكالى ، ودخلت حجرة مسودة الجدران . . أسندت ظهرها على الفرن ، وأراحت رأسها على كفها ، وقد أيقنت أن لا فائدة من النقاش . . .

كف عن البكاء فجأة وتلفت حوله كالمذعور . . السماء تحولت إلى رمادية وبدأت أصوات الليل تزحف . . قام وخطا مسرعاً فى اتجاه حجرة فى أقصى البيت عليها قفل ضخم . . أمسك بطرف خيط غليظ يتدلى من سرواله ، وتحسس مفتاحاً صغيراً . . مضى يعالج القفل ، وقد بدا بثوبه الأغبر على حجمه الضئيل كالفأر ! دخل الحجرة وأغلقها وراءه . .

وقف للحظات حتى اعتادت عيناه الظلام . . وضح له صندوق ضخم فى أحد الأركان فوقه مصباح غازى صغير . . أشعله ، وأحضر جوالا طويلا فرشه بجوار الصندوق وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة .

فتح الصندوق وأخرج منه أكياساً قماشية صغيرة . . وضعها على البرش فى صفين متناسقين ، ومضى يدلك كفه بالأخرى ولسانه يلعق شفته السفلى بحركات عصبية .

فتح أحد الأكياس وأفرغه على الجوال . . لمعت على نور المصباح ، قطع ذهبية مستديرة مما تلبسه نساء القرية . . قلّب فى الكومة الصغيرة بشغف ، وملأ

كفه وقربها من عينيه كأنه يشمها ، ثم أعادها . . فتح كيساً ثانياً وأفرغ ما فيه بجوار الكومة الأولى . . مثلثات ذهبية رقيقة . . الكيس الثالث من المستطيلات ذات الرسوم الهندسية . . بضْعة أكياسٍ أخرى من العملات الفضية القديمة عليها أسماء سلاطين آل عثمان . . صفين جميلين رائعين ، من الذهب والفضة وبنت محمد على السوالمى تريد نهب أموالى ! . أمسك بطرف جلبابه ورفعه إلى أنفه وتمخط . . زحف على أربع متجنباً بعثرة الصفين ، ومد يده داخل الصندوق . . أخرج بضعة أكياس خفيفة . . كون صفًّا ثالثا من أوراق البنكنوت . . أمسك بكيس مربوط بخيط غليظ وتحسسه وهو يعقد ما بين حاجبيه . قالوا له : الحكومة طلبت استبدال البنكنوت فئة مائة الجنيه فلم يصدق . . ربت الكيس وهز رأسه متأسفاً ! .

أعاد كل شيء إلى حاله وخرج . . دخل حجرة الموقد فرأى زوجته بثوبها الأزرق . . عيناها الواسعتان الجميلتان تنظران إلى لا شيء !

جلس بجوارها متكوراً على نفسه وهو يقول فى ود :

– غاضبة منى يا بنت الخال ؟

– لا .

– ولدنا صغير السن .

– من فى مثل سنه خلفوا .

انفعل فجأة :

– مالى أنا ومال غيره ؟ . . من يملك الحناء يحنى ذيل حماره ! فمن أين لى الحناء أنا المسكين ؟

ثم تذكر فجأة أنه انفعل بلا سبب ، فمد أصابعه الرفيعة كالمخلب وربت

خدها ملاطفاً :

– هاتى لنا العشاء يا بنت الخال .

وأحضرت إناء نحاسيًّا أسود ، مملوءا إلى نصفه باللبن ، وفتتت فيه رغيفاً من الشعير ووضعته على النار . . فسألها وهو يحك رأسه :

– بعت اللبن ؟

– بعته .

– والبيض ؟

– بعته .

– الحمام تحته فراخ ؟

– زوج واحد .

– بعته .

– لا .

– ربنا يبارك فيك يا بنت الخال . . تساعدينى أنت على هموم الدنيا الراقدة فوق قلبى . . هاتى الفلوس !

* * *



قبل الغروب بقليل هبط « معوض » إلى النيل بصحبة ابن خالته « سلامة » ابن الشيخ علام . . على كل منهما جلباب صوف أنيق فوق قفطان الشاهى ، وعمامة بيضاء مزهرة لها شراشيب خضراء .

هذه ليلة النصف من شعبان التى ترحل فيها القرى بنسائها وأطفالها إلى قرية « دراو » . . قبل هذه الليلة بفترة طويلة يتنادى البحارة فوق المراكب الأسوانية فى طول البلاد يذكر بعضهم بعضاً الليلة ليلة « الشيخ عامر » المباركة . . المراكب التى تحمل الجرار والحجارة فى نيل القاهرة ودمياط والإسكندرية تفرد قلوعها قبلها بشهرين ، وتتجه إلى الجنوب ، والمراكب التى ترسو على شواطئ أسوان العاصمة تفرغ حمولتها ، وتستدير ؛ لتتجه إلى الشمال .

رأى معوض وسلامة مراكب القرية تدور على شاطئها الشمالى المنحنى من أوله إلى آخره . . وعند منحنى النهر ظهرت مراكب « السوالم » السبعة تقترب مع الغروب فى صفين ، وفى مقدمتها يتخايل المركب الضخم الأبيض « الطوفانى » يقوده « حنظل القاضى » كبير بحارة السوالم بشاربه المشرع !

مظاهرة سنوية معروفة يقوم بها بحارة السوالم . . يتواعدون كل عام على مكان معلوم يلتقون فيه ، ثم يدخلون مياه القرية « الإقليمية » فى مظاهرة مساء ليلة النصف من شعبان كى يتصايح الناس من شواطئ القرية « أسطول السوالم . . وصل ! »

لا أحد يصدق أن الليلة هى الليلة المباركة فعلاً ما لم يشهد دخول الأسطول السوالمى . . كأنه هلال رمضان !

هبطت البنات إلى النيل بثيابهن الزاهية ، وشيلان القطيفة تبرق فوق رءوسهن ، ونزل الشبان الصغار ، بعد أن شبعوا عراكاً مع الخياطين الذين تأخروا فى خياطة جلاليبهم الجديدة . . لا حساب هنا لعيد رمضان أو لعيد الأضحى . . نصف شعبان فقط هو الذى يُلبس الجديد من أجله وتشد إليه الركاب !

كانت بتول بثوبها الأحمر الجديد وشالها القطيفة الأصفر - كأنها فى ليلة عرسها . حينما هبطت إلى المركب الأحمر الكبير الذى يحمل وحده ربع النجع ، صمت الشبان فجأة ، وتلفتت النساء ، ومصمصت العجائز شفاهها ، ووضع الولد الأحول محمد قمر الدين يده على قلبه وقال بأعلى صوت : « أنجدنى يا شيخ عامر من الهلاك ! »

وفوجئت بتول بمعوض يجلس فى مقدمة المركب الذى جلست فى أرضيته ، وتعجبت من جرأته ، لعلمها أن شبان قبيلتها يتمنون التحرش به ! لكنها لما رأت ابن خالته « سلامة » بجواره ، عرفت أن الأخير يسبغ عليه حمايته ؛ لأنه « نزيله » كما تقضى التقاليد .

شيخ العرب شمروخ جلس فى مركب صغير أنيق بين العمدة وشيخ البلد علام ، مع ثلاثة من كبار السن فى السوالم ومعهم عائلاتهم فى أرضية المركب .

وحانت لحظة الرحيل ، ووقف الناس يتلفتون فوق المراكب ينتظرون إقلاع « الطوفانى » بحمولته الزاهية إيذاناً ببداية الرحلة . . وزغردت النساء ، ودقت الدفوف حين رأوه يستدير ويتجه إلى عرض النهر ، وفردت المراكب قلوعها

وامتلأت صفحة النهر ببضع عشرات من المراكب من مختلف الأحجام . . وفى أعلى سارية الطوفانى ، راية حمراء يقال : إن « سالم الكبير » كان يحملها فى اليوم الذى قاد فيه شيخ العرب همام الهوّارى قبائل جنوبى الصعيد ضد المماليك .

نظرات كثيرة متبادلة ، بين معوض وبتول دون خوف : فالشبان مشغولون فى الحملقة فى البنات ، والبنات يتظاهرن بعدم الاهتمام ، وفى الوقت نفسه يقمن بحركات استعراضية لاسترعاء الأنظار ! كانت بتول سعيدة بهذا الجو المتحرر الذى لا يتكرر غير مرة كل سنة . . إلا أنها شعرت بالضيق حين رأت ابن قبيلتها الولد الأحول محمد قمر الدين يجلس فى مقدمة المركب ، ويسلق « معوض » بلسانه بطريقة غير مباشرة . . كان يقلد والد معوض فى سخرية مرة ، وشبان السوالم حوله يضحكون :

– ولماذا أزور الشيخ (عامر) ؟ . . كان رضى الله عنه رجلاً طيباً يحب المساكين أمثالى . . لا أظن أنه يغضب منى إذا عرف أننى فضلت الكحت فى الأرض على زيارته ! ذلك لأنه يعرف أننى لو لم أكحت فسأموت جوعاً ! . ثم لماذا أرسل له خروفاً أو نعجة لتذبح على عتبة مقامه المبارك ؟ . . هل فى استطاعته – رضى الله عنه – أن يأكل كل هذه الذبائح فى يوم واحد ؟ . . مسألة الخراف والنعاج ما هى إلا نوع من الاحترام ليس إلا . . لذلك بعثت إليه – رضى الله عنه – بقرش صاغ كنوع من الاحترام ؛ ليوضع فى أعز مكان من مقامه المبجل !

فى المركب الصغير الأنيق قال شيخ العرب شمروخ لمن حوله ، وجلاليبه الصوف الثلاثة تظهر واحدة وراء الأخرى من فتحة الصدرية الطويلة :

— أنا أجّلت « الحرب » مع الجوابر لحين نهاية مولد الشيخ عامر لثلاثة أسباب :

السبب الأول : هو خوف من غضب الشيخ عامر إذا ظن أننى تعمدت إفساد ليلته .

والسبب الثانى هو أن قبائل بلدنا فى حاجة إلى الاتحاد الآن ضد بعض القرى التى تضيق بنا كلما رأتنا فى المولد .

قال ذلك وصمت . . فسأله العمدة :

— والسبب الثالث ؟

— الثالث ؟ . . هل قلت (ثالث) ؟ . . لا ، لا ثالث يا عمدة !

ثم وقف يتلفت حوله ، الشمس هبطت وراء جبل « أبو شهاب » والمراكب تباعدت بعضها عن بعض كقطع الليل الصغيرة داخل الليل ، وأصوات دفوف بعيدة وراء منحنى النهر ، من مراكب إحدى القرى تغنى للشيخ عامر الأغنية المشهورة « جيناك زوّار يا بو محمد » .

* * *

شق معوض الزحام إلى أن وصل إلى الدرب الذى يقع شرق مقام الشيخ عامر . . الصحراء الواسعة أمام المقام امتلأت بفرسان القرى يتسابقون بخيولهم . . تجمعات كثيرة تناثرت فى الصحراء : بعضها يقيم مولداً تقرأ فيه المدائح للرسول ، وبعضها حلقات ذكر ، وبعضها حلقات للشباب يغنون « العراسة » ويرقصون وعشرات الشوادر والخيام وعشش البوص امتلأت بالحمص والحلوى والفول السودانى . . فى أقصى الزحام فى عمق الصحراء أقام الخدم — الرقيق السابق — خيامهم لبيع (البوظة والعرق) والخمور الرخيصة .

جاءت بتول تتعثر فى ثوبها الأحمر الجديد ، وشالها القطيفة الأصفر تغبر فوق رأسها ، والحذاء الجديد أوجع قدميها لضيقه .

كان الجو حارا ، والخيل المتسابقة تملأ الفضاء غباراً ، والشمس قاسية برغم فصل الشتاء . .

سار أمامها ببضع خطوات وسارت وراءه يشقان زحام الدروب الغاصة بالبشر من كل القرى والنجوع وبمختلف الأزياء . . طلبة المدارس الذين قدموا من القرى المجاورة ، يرتدون الجلاليب البيضاء ورءوسهم عارية ، والطالبات يرتدين الجلاليب الفضفاضة أيضاً ، والقادمون من غرب النهر لهم عمائم ضخمة ، والنوبيون بعمائم ملونة ، وبعض نساء النجوع الصحراوية لا تظهر غير أعينهن !

بضعة سياح ببنطلوناتهم القصيرة وآلات تصويرهم معلقة فى أعناقهم يحدقون فى هذه الجموع البدائية ، والجموع تشير إليهم وتقول : « انظروا إلى البلهاء ! »

بعد مسيرة نصف ساعة فى دروب « دراو » وصل معوض ببتول إلى درب طويل أوصلها إلى ساحة صغيرة تدور حولها بيوت سمراء قميئة تعطى الصحراء ظهرها ، استقبلتهما فى الساحة امرأة زنجية مفرطة البدانة تملأ يديها بدوائر ذهبية . . وضعت يديها فوق كتفى معوض واحتضنته فى فرح وهى تهتف بصوت متهدج :

– أهلاً بالحبيب . . حمد الله على السلامة يا عمدة .

وربتت بكفها الكبيرة جبين بتول ، ثم قرصتها فى خدها بحنان قائلة :

– حلوة أنت مثل كعكة العيد يابنية ! على حين كانت بتول تفغر فاها وتنظر

إليها تارة وإلى معوض تارة دون فهم .

أشارت المرأة إلى أحد الأبواب وأومأت له بالدخول قائلة :

– البيت بيتك يا حبيب . . ادخل . . سأعود حالاً .

ودخل معوض ودخلت بتول تحدق فى البيت باستغراب !

فناء صغير تتوسطه نخلة يتكئ عليها زير ، وعلى الجانب الأيسر برش كبير على الأرض بين سريرين من الحبال ، وحجرتان صغيرتان مغلقتان ، وأرنب أبيض يشمشم فى الجدار .

سألها وهو يجلس بجوارها فوق سرير الحبال :

– هل يحس أحد بغيابك يا بتول ؟

– لا . . كل جماعة من جماعات البنات تظن أننى فى جماعة أخرى . . لكن من هذه المرأة ؟

– إنها « كهرمان » . . أمها كانت عندنا (زمان) ، وهى ما زالت تزورنا حتى الآن .

– وتأتى أنت لزيارتها ؟

كهرمان كأنها واحدة من عائلتنا . . أنا أزورها باستمرار . . كلما جئت « دراو » لسوق الثلاثاء أو لزيارة الشيخ عامر ، أقضى فترة الظهر عندها .

ثم صمت قليلا وقال بلهجة آسفة :

– قابلت (أبوك) يا بتول !

– خير يا معوض .

– قلت له : « احجز لى بتول يا عم محمد على » فمد يده وقال لى : « هات المهر » !

– قلت لك : لا فائدة منه يا معوض !

وجاءت «كهرمان» بثوبها الأسود تجر كتل اللحم . . هللت لها بصوت رفيع كصوت الأطفال وسألته عن أهله :

– كيف حال سيدى عبد الغنى وسيدتى فاطمة يا حبيب ؟

شعر بفخر عظيم . . اهتزت عمامته الحريرية بشراشيبها الخضراء مع حركة رأسه . . رمق بتول ثم قال لكهرمان :

– فيك الخير . . (يسلموا عليك) ومشتاقين . . اذبحى لنا دجاجة وحمريها . . لكن حالاً حالاً .

– ذبحتها من الصباح يا حبيب . . كنت أعرف أنك قادم يا عمدة . . لكن من هذه البنية ؟

– بتول . . من قبيلة السوالم .

ضربت كهرمان صدرها وشهقت :

– قبيلة السوالم ؟ . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أدركنا بسرك يا شيخ عامر ! قبيلة كلها مجانين يقاتلون الناس بلا سبب وإن لم يجدوا من يقاتلونه ، قاتل بعضهم بعضاً . . حتى نساؤهم يشتمن الناس بلا سبب ! فى آخر زيارة لكم قابلنى شاب صغير السن منهم ، وأمسك بيدى يريد خلع ذهبى بالقوة . . صرخت وملأت الدنيا ، فتجمع الناس ، ودخل الشاب حقول الذرة . . ومع أنهم رأوه فإنهم أنكروا أنهم عرفوه . . خسارة البنية الحلوة يا معوض تكون من قبيلة السوالم !

وتجهمت بتول .. لكنها لما رأت (معوض) يغرق فى الضحك ، ضحكت فى سعادة ولاسيما عندما رأت «كهرمان» تغرق هى أيضاً فى ضحكة طفولية بريئة .

دخلت كهرمان فى ركن يفصله عن الفناء جدار قصير . . قام معوض ودخل وراءها . . كور فى قبضته ورقة مالية من فئة الجنيه ومدها لها ، فضربت صدرها قائلة :

– أنا ؟ . . فى يوم مولد الشيخ عامر ؟ . . أبداً يا حبيب . . أنا آخذ منك ومن أملك الكثير يا حبيب !

وحاول معها ، لكنها أصرت على الرفض ، فعاد ليجلس بجوار بتول ، وما لبثت كهرمان أن عادت تحمل طبقاً أبيض كبيراً به أجزاء دجاجة كاملة . . بما فى ذلك الرأس والجناحان والساقان بأصابعها . . وضعت الطبق على البرش وتربعت ، وهبط معوض وبتول ليأكلا . . وتناولت كهرمان رأس الدجاجة قائلة :

– ومقام الشيخ عامر . . لا أذوق من الدجاجة إلا رأسها . . الباقى من نصيبك ونصيب البنية يا حبيب . . ما اسمها قلت ؟

– بتول .

– أنت خطبتها يا عمدة ؟

رفع رأسه ينظر إلى بتول متفائلاً ثم قال لكهرمان :

– سأخطبها بعد المولد .

وقامت كهرمان وعادت تحمل إناء مستطيلاً من الصفيح امتلأ حتى حافته بخمر « العرق » . . مدته إليه فتردد قليلاً ، ثم تناوله ونظر إلى بتول نظرة غير مفهومة . . قد توحى بخوفه من أن تتهمه بنقص الرجولة إن لم يشرب ، وقد توحى بالخوف من اتهامه بشرب الخمر إن شرب ! ثم قربه من أنفه وشمشم فيه قليلاً ، ثم عب منه كأنه قرر الإقدام على الانتحار ، وناوله لكهرمان التى ناولته

بدورها لبتول . . لكن بتول ابتسمت وهزت رأسها معتذرة ، فعبت منه كهرمان ، ووضعته جانباً وهى تحمحم وقد احمرت عيناها .

أكلا وجلسا على سرير الحبال ، وجلست كهرمان على البرش عند أقدامها تعب من الإناء وتبتسم فى وجهيهما فى ضراعة .

قامت بصعوبة وملأت الإناء من جديد . . وعند عودتها لمحت يد معوض تحيط بكتف بتول . . لكنها رأتهما يفزعان عند رؤيتها .

جلست كهرمان تشرب فى شراهة ، وتوجه إليهما نظرات مشحونة بحنان غريب .

مدت الإناء لمعوض فهز رأسه رافضاً فقالت ضارعة :

– وحياة الله يا حبيب .

شرب معوض حتى احمرت عيناه . . وأشارت كهرمان إلى باب حجرة قائلة :

– اجلسا فيها يا عمدة .

نظرا إليها فى دهشة ، فقالت متوسلة :

– اعمل (معروف) يا حبيب . . إن كان لى خاطر عندك يا عمدة . . هى خطيبتك وأنت خطيبها . .

ونهضت ، فقبلت رأسه ورأس بتول ، وأمسكت يده ، ووضعتها فى يد بتول ، ومدت له الإناء فعب منه بلا وعى ، ووقف ، فوقفت بتول ، فشدها وهو يخطو أمامها مترنحاً ، فتبعته كالمنومة .

أطلا فى مدخل الحجرة فرأياها معتمة . . لصق جدارها المقابل سرير من

الجريد ، فوقه حشية عارية ، وبضعة ثقوب تتسلل بالضوء من أركان السقف الطينى .

أغلقا الباب وراءهما وهما يلهثان . . ومدت بتول سبابتها محذرة :

– تقعدْ جنبى ساكتْ . . أو أصرخ واملأ الدنيا !

لم يرد . . كان رأسه يدور ويختلط عليه الحلم بالواقع ، وطعم « العرق » يتسرب مع أنفاس أنفه . . جلسا على السرير ، ومد يده وأحاط عنقها ، لكنها خلصت نفسها وابتعدت عنه قليلاً .

فى الخارج كانت كهرمان تزحف على أربع وعينها فى ثقب الباب . . رأت « معوض » يقترب من بتول فلمعت عيناها وتسارعت أنفاسها . . كان يقرب رأسه من وجهها ويقول كلمات غير مفهومة وبتول تميل برأسها نحوه فى بطء كالمخدرة . . مد يده واحتضن رأسها ومضى يقبلها فى خدها بسرعة وشوق ، فانهمرت الدموع من عينى كهرمان وماجت ملامحها بتعبيرات فرح بدائى تخالطها تعبيرات حزينة ! رأتهما يرقدان على السرير ويتداخل جلبابه الأبيض بثوبها الأحمر ، ثم رأته يقف فجأة مبهوتاً يحدق فى بقعة دم حمراء فى جلبابه ، وبتول نصف راقدة تحدق فى وجهه بشعرها المهوش فى فزع !

* * *

فى الجدار الخارجى الملاصق لمقام الشيخ عامر ، تجمعت نساء قبيلة « السوالم » بعباءاتهن السوداء الخشنة تخفى تحتها الثياب الجديدة الملونة ، يلهثن من العطش وقد تغير الجو فجأة وعصفت الريح الساخنة . . وسال العرق على وجوه البنات ، وجفت شفاههن ، وانطفأت من عيونهن نظرات الفرحة . . وبكى الأطفال وطالب الصبيان بالماء ، وولولت امرأة :

– أدركنا يا شيخ عامر من الهلاك . . كل بلدة دارت حول أزيارها . ومنعت الناس من الاقتراب منها .

كثيرون من أهل « دراو » يتطوعون لملء الأزيار الضخمة لرواد المولد . . كل قرية تعرف أزيارها وتشرب منها ، ويأتى الكثير من السقائين لملء ما يفرغ منها . . لكن العادة جرت أن يترك الكثير من الأزيار فارغة فى الشتاء . . اليوم انقلب الجو فجأة ولم يكن هذا فى الحسبان . . ريح « السموم » التى تأتى من الجنوب تلفح الوجوه بالرمال الساخنة وكأنها مرت على آلاف الأفران . . وصرخت امرأة فى صبى من « السوالم » قائلة :

– هات لنا الرجال . . يذهبون إلى الموالد والذكور يشربون هناك ، ونموت نحن هنا من العطش ؟

وهرول الكثيرون من الصبيان يبحثون عن رجالات السوالم فى الزحام . . وجاء بضعة رجال منهم ووقفوا يحدقون فى النساء ويدورون حول أنفسهم وصراخ الأطفال يصم الآذان . . وهاجت امرأة شابة ، ورفعت ابنها الطفل إلى أعلى ، وضربته بالأرض وهى تصرخ فى هستيرية :

– اسكت ! ليس عندى ماء ! اسكت ! ليس عندى ماء اسكت !

فأمسكت بها النسوة وخلصن الطفل من بين يديها . . وجاء رجال آخرون وداروا حول أنفسهم كسابقيهم . . ولوح أحدهم بيده النحيلة فى عصبية وصرخ :

– لماذا تأتى النساء إلى الموالد ؟ . . ما الذى نكسبه منهن غير العار بين البلاد ووجع الدماغ ؟ . . ثم ما الذى نفعله الآن بألف امرأة وألف بنت وألف طفل ؟ الله يلعن النساء فى كل كتاب ! . . المسافة بيننا وبين النيل ساعتان من الزمن

وهنا الناس لا أحد يسأل عن أحد . . والسقاءون عرفوا أن الجو شتاء فلم يأت منهم أحد . . لماذا تأتى النساء لولا أن الرجولة انتهت من الدنيا وأصبحت النسوان تحكم الرجال ؟

وولولت امرأة فى وجهه وساعدتها بضع نساء وتعالى الصراخ !

وسمع الرجال جلبة خلفهم فالتفتوا ليروا « شمروخ » بعمامته فوق رأسه كالمظلة التى عفرها الغبار !

صرخ فى الجميع بصوته الخشن يسأل عما حدث ، فصاحت به مغربية « بنت كذاب القبيلة » مستنجدة :

– الحقنا يا شيخ العرب شمروخ ! . الحقنا ياكبير يا بن الكبير يا زينة قبيلتنا ، لا غيب الله صوتك !

ارتفع فكه إلى أعلى ، واحمرت عيناه ، واكتست ملامحه القوية بتعبير من صمم على أمر . . رفع يده بأكمامها الثلاثة إلى أعلى وصاح :

– جوابى يصلك بعد خمس دقائق يا بنت أسياد الناس ! . . بحر النيل نفسه أنا أنقله هنا !

واستدار يخترق الزحام ، حتى وصل إلى ميدان سباق الخيل . . وصرخ فى شاب من أبناء قبيلته طالباً منه أن ينزل من فوق حصانه ، فهبط الشاب منزعجاً . . ووضع قدمه اليسرى فى « الركاب » وجلس على السرج فى ثقة . . وفى عصبية ساق الجواد وسط الزحام والناس من حوله يتفزعون ويحدقون فى عمامته باستغراب . . ولما ملك الفضاء انطلق بالجواد كالريح ، فى طريق يشق حقول القصب حتى وصل إلى عشش كثيرة من البوص حولها عشرات الجواميس بقرب النهر . . وخرج إليه رجال بثياب رثة ، يرفعون رءوسهم إلى

أعلى يحدقون فيه :

– أين كبيركم ؟ . . يقترب حالاً ويكلمنى لأن روحى فى مناخيرى !

رفع أحدهم يده إلى رأسه الذى يلفّه بخرقة قديمة وقال :

– أنا يا شيخ العرب . . طلباتك ؟

– جهِّز لى مائة قربة ماء . . أفتح عينى وأغمضها ، أجد القرب المائة أمامى !

– حاضر . . القربة تكلفك ثلاثة قروش . . لأن أسعار المولد غير أسعار الـ . .

صرخ فيه :

– أى مولد يا بنى آدم ؟ . . ألم تسمع عن شيخ الغرب شمروخ زعيم قبيلة السوالم ، أعظم قبيلة فى بر مصر؟ أنا أدفع أربعة قروش فى القربة ، لكن أغمض عينى وأفتحها ، أجد القرب المائة أمامى !

ودفع بكفه إلى فتحات الجلاليب الصوف الثلاثة يخرج حافظة نقوده ، وهرول السقاءون من حوله يجهزون القرب فوق حميرهم القوية .

ورأى أمامه خمسين حماراً فوق كل حمار قربتان . . فقال محتجا :

– ما هذا ؟ . . متى تصلون إذا كان الحمار الواحد يحمل قربتين؟

فتحوا أفواههم يحدقون فى هذا الرجل الغاضب بعمامته الضخمة ، والجواد يدور به حول نفسه ، ويصهل – هو الآخر – ويدق الأرض بحوافره ، وصرخ فيهم بلهجة آمرة :

– حلّوا جواميسكم وضعوا عليها بقية القرب . . ثم إن الخمسين حمارا لا تسترعى الأنظار كما يجب . . أنا أريد من الموكب أن يزلزل المولد كله عندما

يدخل ! . . أنا أدفع فى القربة الواحدة خمسة قروش !

ودفع بيده إلى فتحة جلاليبه الثلاثة وتحرك موكب ضخم طويل أوله حمير وآخره جاموس ، وهو يركض بجواده فى المقدمة والمؤخرة والوسط :

– أنت أسرع . . وأنت أمسك القربة جيداً . . وأنت ، هل تريد مساعدة ؟ . . أسرعوا . . وليكن فى علمكم . . عند دخول المولد ، كل واحد منكم يخرج من فمه صوتاً « أر . . أر . . أر » لحماره كى ينهق الحمار . . سأعطيكم إشارة خاصة ، عندما أريد للحمير أن تنهق . . أريدها أن تنهق كلها دفعة واحدة وفى لحظة واحدة مفاجئة . . يجب أن يكون الموكب مثل يوم القيامة ! . . لابد أن يجعل أهالى القرى يتحدثون عنه سنة كاملة بعد عودتهم إلى قراهم (فاهمين) ! . . أنا أدفع فى القربة الواحدة ستة قروش !

وصمت المولد فجأة حينما فوجئ بخمسين حماراً تنهق كلها مرة واحدة ، يتقدمها رجل بعمامة ضخمة يختال بجواده فى مقدمتها ، يصدر الأوامر هنا وهناك !

وفغر طالب جامعى من بندر كوم امبو فاه وقال لزميله ذى السوالف الطويلة :

– تفرج على منظر أهالى النجوع البعيدة وقرى غرب النيل ! لو جاء بعض الصحفيين الأجانب هنا لفضحونا فى صحف أوربا ! . انظر إلى الرجل الذى يضع الكفن الأبيض على رأسه ، يصول بحصانه بين القرب والحمير والجاموس ، ويلوح بيديه ، كأنه الماريشال روميل يقود مدرعاته فى صحراء العلمين . . فضحونا الله يفضحهم !

وشربت نساء « السوالم » حتى ارتوين . . وزاد الماء ، فتوضأت العجائز

وأقمن الصلاة جالسات . . وبدأ الأطفال يلعبون . . وغسلت البنات وجوههن ، وعادت إليهن الابتسامات . . فقررن أن يذهبن إلى سباق الخيل يتفرجن على الفرسان بعمائمهم ذات الشراشيب الملونة .

* * *



– أنا مسكين ! . من أين أملك المال لأتبرع ؟ . . أنا مسكين !

وقال له شيخ قبيلته :

– حرام عليك يا شيخ عبد الغنى . . المسجد بيت الله . . حتى بيت الله لا تريد أن تتبرع له ؟

هز كتفيه ثم حك عنقه المغبر وفأفأ :

– لكن ، لكن ، لكن ، ولماذا أتبرع له ؟ . . قصدى ، قصدى ، قصدى ، وما الذى يحتاج إليه الجامع ؟ . . أنا رأيته بحالة جيدة !

– سقفه قديم . . سنعيد سقفه ونرتفع بجدرانه قليلاً .

– وهل شكا لكم هو وقال لكم سقفى قديم ؟ . . هل قال جدرانى قصيرة ، ارفعوها لى ؟ . . لوكان السقف وقع ، كنت عذرتكم . . لكن السقف سليم والحمد لله ! فلماذا حَكْحَكَة الكلام وخلق النفقات وتبديد المال فى هذه الأيام السوداء ؟

كانا يجلسان على جسر قناة معشوشبة عليها صفان من شجر الحناء . . القناة تشق المزارع الخضراء ، ثم تدخل فى غابة صغيرة من النخيل ، وتخرج منها لتدخل تحت جدار جنينة يفوح منها عبير ورق المانجو . . ثمة نعجة تجتر راقدة بالقرب منها وحملانها تتقافز حولها فى مرح .

ضرب شيخ الجوابر قفطانه الشاهى بكراسة صغيرة فى يده وقال :

- أنت عارف قبيلة السوالم تبرعت بكم ؟ . . قبيلة السوالم التى لا تملك خُمس أرضنا تدفع النصف وحدها قبالة البلد كلها ، وأنت زعيم الجوابر ترفض التبرع ؟

- وكيف أتبرع إذا كنت لا أملك المال الذى أتبرع به ؟ . . أسرق ؟ . . أنهب ؟ . . مالى أنا ومال قبيلة السوالم وقبيلة الكواسر ؟ . . ثم لماذا أتبرع فى شيء لا يخصنى ؟ . . هل رأيتنى أصلى فى حياتك ؟ . . هل دخلت جامعكم من قبل ؟ . . أنا أتبرع لكم وأنتم تصلون ؟ أما عجائب والله !

وكظم شيخ الجوابر غيظه . . تغلبت عليه دماثة قومه ، فقام صامتاً .

* * *

دخل معوض البيت فرأى أباه وأمه يجلسان على (برش) فى الشمس لصق الجدار.. الأب يضفر جزءاً من مقطف جديد ، والأم تطعم الكتاكيت.. أدار الأب رأسه وأعاده بسرعة ، وتوقفت الأم عن عملها وابتسمت له فى حنان :

- حمداً لله على سلامتك يا فارس . . قرأت لنا الفاتحة فى الشيخ عامر ؟

تلعثم الشاب . . عمامته معفرة وعيناه زائغتان . . أحست به الأم . . قامت ودخلت حجرة الموقد . . فوق العتبة أشارت إليه دون أن يحس زوجها . . ألقى معوض نظرة على أبيه وقال :

- سلام يا أبى .

لم يرفع الأب رأسه . . أصابعه الرفيعة كأصابع المومياء أسرعت فى عملها ، وتحركت شفتاه دون صوت .

فى حجرة الموقد وقف معوض قبالة أمه . . حدق فى وجهها قليلاً ثم جلس على ركبتيه . . نكس رأسه وانخرط فى بكاء مكتوم . . احتضنته المرأة فى فزع ،

وقالت له : أفرغ همك على صدرى ! تمتم وفأفأ وعينا المرأة الجميلتان تتسعان شيئاً فشيئاً . . أطلقته من بين يديها وضربت صدرها وقالت بصوت خافت فزع : « بيتى خرب » !

وقفت المرأة وتلفتت حولها ، ثم خرجت وجلست بجوار زوجها . . مضت برهة طويلة وهى صامتة ، على حين كانت أصابعه العظمية تعمل فى عصبية وقد ضيق عينيه يترقب أمراً خطيراً . . شهقات ابنه تصله من حجرة الموقد ، وغضبه يتجمع شيئاً فشيئاً . . لكنه ترك ما فى يده ، وارتعش عندما بدأت زوجته تروى له ما قاله ابنه . . تقهقر إلى الوراء ، وألصق ظهره بالجدار ، ودار بيديه حول ركبتيه فأصبح كالكرة يطل منها رأسه الصغير المذعور . . وصمتت المرأة . . ومرت فترة قبل أن يتمالك نفسه وينفجر :

– حيلة . . حيلة عملتها بنت المقطوع فى ابنك الحمار . . لكن على مَن ؟ . . إن كانت هى زرقاء الناب فأنا أيضاً أزرق الناب ! ومادامت لم تجد من يربيها فعليها أن تتحمل نتيجة قلة أدبها !

– وابنك ؟

– ماله ؟

– وإذا قتله السوالم ؟

– مالى أنا ؟ . . هل قلت له يلبس قمصان الكشمير وشيشان الكريب ويدور مع بنات المقاطيع الخسرانات ؟

قامت المرأة فزعة . . تناولت عباءتها ، وخرجت حافية ، كما تقضى التقاليد على الأم الثكلى ، واتجهت إلى بيت أخيها تستنجده ، وصورة ابنها تتخايل أمامها مضرجة فى الدماء !

٦

وضجّ المجلس فى ديوان شيخ العرب شمروخ بالقهقهات . . العمدة والشيخ علام والمأذون وشيخ الكتاب وثلاثة من مدرسى المدرسة الابتدائية وبضعة شيوخ وشبان من القبيلة . .

ووقف الشيخ علام ، وتقدم من شمروخ وأمسك بعمامتيه وقبلها وهو يقول :

– بارك لله فيك يا عمود قبيلتنا . . سمعت كلامنا وأرحت قلوبنا !

ثم التفت إلى العمدة وقال له :

– شمروخ طول عمره قلبه أبيض . . إذا غضب فمثل بحر النيل يغرق العالى والواطئ ، وإذا هدأ فمثل نار القش ! . ما إن قلت له أمام مقام الشيخ عامر رضى الله عنه : « رد اليمين واصرف النظر عن موضوع ابن عبد الغنى الجوابرى حتّى قال لى : حاضر يا شيخ علام » . . طول عمره قلبه أبيض بارك الله فيه .

ودارت أكواب الشاى على الجالسين ، وتحدث شمروخ باستفاضة عن مغامراته التجارية فى بلاد الله الواسعة . . يشترى البلح من أسوان ليبيعه فى القاهرة ، ويشترى الجمال من السودان ليبيعها فى سوق « دراو » وبين كل رحلتين يقضى شهرين فى نجعه الذى يعشقه ، لينفق كل ما معه باستثناء رأس المال .

وجاء ابن شمروخ الصغير بطاقيته الملونة وقميصه الأبيض الأنيق وهمس لأبيه :

- كلم أمى .

قام شمروخ ودخل البيت من باب الديوان المفضى إلى البيت . . ثلاثة بيوت مستقلة ، لكل بيت باب صغير يؤدى إلى ممر يفضى إلى باب الديوان . . دخل البيت الأوسط ليجد أمامه أم بتول تجلس مع زوجته الوسطى المحببة ، والمرأتان تحدقان فيه بذهول . . أومأت له زوجته أن يجلس ، فجلس على سرير من الحبال ، وجلست زوجته بين يديه فوق برش مفروش .

أم بتول جلست بعيداً على الأرض ، وظهرها للجدار ، وبين يديها قشة تحطمها فى عصبية ورأسها منكس .

مضت زوجته تتحدث إليه بصوت خافت ، ورأسه بعمامته الضخمة ، يميل على صدره شيئاً فشيئاً وهو يتساءل بعد كل جملة : « هه ؟ . . هه ؟ » بطريقة عصبية كأنه لا يسمع جيداً ، وزوجته تتلعثم وتعيد عليه كل جملة من جديد .

التفت إلى أم بتول فى حدة . ثم إلى زوجته ثم إلى أم بتول مرة أخرى وقال لها :

- ضحكت عليها !

رفعت أم بتول رأسها وقالت ضارعة :

- أنا جئتك لأنى أعرفك . . لا تفضحنا الله لا يفضحك .

ثم أمسكت بطرف عباءتها ومسحت دموعها ، وعادت تنكس رأسها وتحطم قشة جديدة .

ووقف . . سار بضع خطوات إلى الأمام واستدار يحدق فى المرأتين صامتاً . . يدخل يديه فى جيوبه ويخرجها ، ويضغط عمامته إلى أسفل ، وينظر إلى السماء تارة ، وإلى طرف حذائه تارة .

فجأة جلس على الأرض وتمدد على جنبه وأسند رأسه على كفه وكوعه

مغروس فى التراب .

لمح ابنته فى نهاية البيت تنظف زجاجة الفانوس الكبير استعداداً لإنارة الديوان ، والسماء امتلأت بطيور « أبو قردان » عائدة إلى أعشاشها .

هب فجأة واقفاً ، وجلبابه الأزرق الخارجى تحول نصفه الأيسر إلى لون ترابى ، وقال لأم بتول بصوت كالفحيح :

– أبوك وأبو بنتك يا كلبة يا بنت الكلب !

قالت له زوجته فى عتاب رقيق :

– شمروخ . . المرأة اختارتك أنت من بين كل رجال القبيلة .

التفت إلى زوجته فى حدة وقال لها بصوت خافت :

– أبوك أنت أيضاً يا كلبة يا بنت الكلب !

ارتفع صوت زوجته قليلاً فى عتابها :

– شمروخ . . أين عقل شيخ العرب زعيم جماعته ؟

رفعت أم بتول رأسها وقالت فى رجاء وبصوت موزون كأنها تلقى بيتاً من الشعر :

رجال الشدايد . . يا رب خلِّيهم .

ثم أردفت :

– الذين يسترون على مكسورات الجناح هم : « رجال الغندرة الزينة » وليس (رجال فتُّوالنا وزيدونا) !

نفض جلبابه ، ودخل إحدى الحجرات بلا سبب ، ثم خرج ونظر إلى المرأة ، ثم إلى زوجته ، ثم إلى المرأة من جديد وسألها :

– من عرف ؟

– الله وأنت وزوجتك .

التفت إلى زوجته قائلاً فى حدة :

– أضربك بالرصاص لو قلت لأمك !

رفعت زوجته نظرها إليه فى عتاب فاستطرد :

– أنا عارف أمك ! . . هى أيضاً أضربها بالرصاص لو عرفت !

لوحت له زوجته بيدها غاضبة ، وأدارت رأسها بعيداً فى احتجاج صامت ، فقال للمرأة :

– اذهبى إلى بيتك يا امرأة (واكفى على الخبر ماجور) ، والمكتوب على الجبين تراه العيون !

* * *

قهقه المجلس بصوت عال وشمروخ يتقدم منه . . وقال العمدة لأحد المدرسين وهو يشير إليه :

– بالله عليك تعيد الحكاية لشيخ العرب يا أستاذ . .

وعدل المدرس من وضع جاكتته فوق جلبابه ذى الياقة القاهرية وقال باسماً :

– مرضت حفيدة الشيخ علام فأرسل فى طلب الطبيب . . وكان الطبيب قاهريًّا طيبا لم يكمل أسبوع واحد منذ وصوله بلدنا . . كشف على الفتاة وأعطاها حقنة ، وأوصى بالدواء وطمأنهم وذهب . . وما إن خطا بضع خطوات حتى أغمى على الفتاة ، فهرول بعضهم وأعادوا الطبيب . . وكان الشيخ علام ساعتها يلطم خديه ! وجاءت على الصياح مغربية بنت كذاب القبيلة وسألت الشيخ (علام) عن الخبر ، فأشار إلى الطبيب وقال فى انفعال :

- الطين . . تطينت . . أرسلنا للمطين . . جاء وطينها . . لكنها تطينت . . فجرينا وراء المطين . . وها هو ذا جاء ليطينها !

وكان الطبيب يفغر فاه ويحدق فى وجه الشيخ علام دون أن يفهم شيئاً . . فقط هو « يحس » أن الكلام عليه !

وقهقه العمدة والمدرسون وشاركهم الشيخ علام بضحكته مثل كأكأة الدجاجة . . لكن العمدة قطع ضحكته فجأة حين وقع بصره على وجه شمروخ المكفهر وعينيه الحمراوين :

– مالك يا شمروخ ؟

صمت المجلس ، وتطلعت الأعين فى دهشة إلى وجه شمروخ واكتست الوجوه بالتجهم . . رفع شمروخ يده بأكمامها الثلاثة وصرخ :

– طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاثة . . إذا لم يأت عبد الغنى الجوابرى بنفسه يخطب بتول بنت محمد على السوالمى لابنه – أخرب البلد علينا وعليهم !

صرخ فيه الشيخ علام :

– ماذا حدث باسم الله ؟ . . من يكون ابن الحرام الذى لعب بعقلك وجعلك تغير رأيك ؟

– طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث . . إذا لم يصلنى رد من قبيلة الجوابر قبل ثلاثة أيام – أجعل النجوع كلها تبكى على الموتى !

كان لهاثه المسموح كصوت اللبن فى المخض . . وقام الشيخ علام واحتضنه ، لكنه دفعه بعيداً عنه وصرخ فى بضعة شبان فى المجلس :

– نبابيتكم ! . . جهزوا نبابيتكم وهاتوا الحراب !

والتفت إلى ابنه قائلاً :

– قل لأمك تجهز لى مخلاة الرصاص ، وتنفض التراب عن البندقية !

وضاعفت الشمس الغاربة من طول ظلال الشبان يهرولون فى مرح هنا وهناك فى النجع . . يتنادون ويبشرون بعضهم بعضاً بيوم رائع تفرقع فيه النبابيت ، وتتحطم الرءوس وتظهر شجاعة الشجعان ، وتزول الرتابة المملة . . أكثرهم ممن لم يكملوا المرحلة الابتدائية ، وقراريط آبائهم لا تأخذ غير القليل من وقتهم ، والمصانع على الشاطئ الآخر تطلب حملة الشهادات ، وأهل الخبرة الصناعية . .

وقال العمدة بلهجة هادئة :

– أنت كنت معنا فى أمان الله ، ورددنا لك اليمين . . قل لنا عن الذى جعلك تغير رأيك ، لكن على شرط . . بدون غضب !

– الجوابر يقولون ، قبيلتنا مشكوك فى نسبها ، ويمنعون أولادهم من الزواج من بناتنا ، وأنتم جميعاً تحولتم إلى مداهنين !

غضب العمدة . . وقف وضرب صدره قائلاً :

– أريد أن أعرف . . هل أنا الحكومة هنا أو أنت ؟

ضرب شمروخ صدره :

– أنا !

قال العمدة بصوت عال :

– أنا أقدر أكتب ورقة صغيرة لحضرة جناب المأمور أقول فيها : إنك تسبب الفتنة فى البلد وأضعك فى السجن !

رد شمروخ مزمجراً :

– أنت عمدة لأن ثلاثة من قبيلتنا كتبوا أرضهم باسمك كى تصبح عمدة !

أما أنا فإني عمدة بالذراع !

– أنت كذاب فى كل ما قلته عن حكاية منع أولادهم من الزواج من بناتنا ولابد أن فى رأسك أشياء أخرى لا نعرفها . . لكن والله والله والله . . إذا لم تقصر الشر أضعك فى السجن ؟

صرخ الغلام الأبنوسى ابن الرابعة عشرة الذى أعطاه شمروخ عمامته فى العمدة :

– وأين البلد الذى يستطيع حمايتك منا إذا أرسلته للسجن يا عمدة ؟ . . لوكنت عمدة بحق وحقيق ، أرسله للسجن ثم تفرج على ما سيحدث لك !

والتفت العمدة إلى الغلام الذى كان يحمل نبوتا أطول منه وقال له وهو يهز رأسه فى أسف :

– أنا أستحق كل ما يجرى لى ، لأننى وافقت أكون عمدة عليكم أنتم يا همج البلاد !

ثم اندفع إلى الخارج ، وتبعه المدرسون ومعهم أكثر شيوخ القبيلة .

وجلس الشيخ علام قبالة شمروخ ، وقال له فى هدوء باسم :

– قل بسم الله الرحمن الرحيم يا عمود قبيلتنا الله يبارك فيك وفى ذريتك . . كل شىء بالهدوء يمكن أن . . . .

قاطعه شمروخ بلهجة غاضبة :

– لا أريد أن أسمع . .

وقف الشيخ علام بسرعة وخطا إلى الخارج وهو يقول فى انفعال :

– أنا محقوق ، لأنى أكلمك أنت يا مجنون ، يا مر اللسان ، يا بن زينب المطينة !



تجمع شيوخ الجوابر – باستثناء والد معوض – فى ديوان شيخهم ، يتشاورون إلى منتصف الليل . . واتفقوا على أن تهديدات « شمروخ » لا تعنيهم فى شىء ، لأن الزواج بالرغبة وليس بالقوة . . وقال شيخهم ضاحكاً فى مرارة :

– هذه أول مرة نسمع فيها عن حكاية مثل هذه يا عرب . . أهل (العروسة) هم الذين يصممون على تزويج ابنتهم بالقوة من ناس لا يريدونهم . . عجائب !

وضحك المجلس . . وقال شيخ آخر له لحية صغيرة :

– إذا كان ابن عبد الغنى له رغبة فى الزواج من البنت ، فليسافر إلى القاهرة ويعمل هناك ، ثم يعود بعد بضع سنوات ويتزوجها ، مادام أبوه لا يوافق .

وفضوا مجلسهم بعد أن أوصوا أولادهم أن يأخذوا حذرهم ، ولا يذهبوا إلى الحقول إلا فى جماعات تحمل النبابيت والحراب !

ورفض خال معوض أن يتدخل فى الأمر . . قال لأخته فى إعياء :

– أنا من قبيلة صغيرة تعيش بين الغولين الكبيرين – الجوابر والسوالم – بالصبر وطول الصمت . . أسأل الله تعالى أن يعمى بصرهم عنا لنقضى أيامنا فى هذه الدنيا مستورين .

ولما قالت له أخته إنها تخاف على ابنها طمأنها . . قال لها : إن السوالم لم

يعرفوا تفاصيل ما حدث بين البنت والولد . . فلو عرفوا لقتلوها أولاً ، قبل أن تمتد أيديهم إليه . . وحذرها من الخوض فى هذا الأمر مع أحد لكيلا يتسرب الخبر إلى السوالم ويتعرض ابنها للخطر .

وسهرت الأم الليالى قلقة . . لكن ، لما مر أسبوع دون أن يحدث شيء بدأت تطمئن .

* * *

دفع معوض باب بيتهم ودخل . . وجد فى انتظاره ابن خالته « سلامة » ابن الشيخ علام . . تعانقا فى حرارة ، وجلسا يشربان الشاى . . فرح معوض بابن خالته . . زيارته تدل على مدى صداقته وإخلاصه . . زيارة لها معناها وقيمتها لأنها محفوفة بالمخاطر . . صاحبها خائن فى نظر قبيلته ؛ لأنه يتصل « بالأعداء » فى أيام « التعبئة العامة » . . الويل له لو انكشف أمره . . حتى لو كان أبوه وغالبية قبيلته ضد هذا التوتر ، إلا أن هذا شيء ، ومثل هذه الزيارة شيء آخر . . أقل ما يصاب به (سلامة) من هذه الزيارة وصمة تجعله فى نظر قبيلته أحط من الجاسوس فى نظر مواطنيه .

ضاحك معوض ضيفه وهش له . . وابتسم كل ما فى المرأة لابن اختها بما فى ذلك عيناها الجميلتان . . وقال سلامة لمعوض :

– احترس لنفسك . . شمروخ يحرض الشباب ويقلب النجع . . أنا لا أفهم لتصميمه هذا معنى . . كنت أفهم أن تصمم أنت على الزواج . . أما هو . .

قاطعه معوض :

– أنا أقول لك عن الحقيقة يابن الخالة . . أنت مأمون على السر و . . .

قاطعته أمه وهى ترسل إليه نظرة محذرة :

– معوض . . اسكت .

رد معوض فى صوت متهدج :

– سلامة أخى وصديقى قبل أن يكون ابن خالتى . . أقول له عن الحقيقة وأستشيره فيما أفعل .

وروى له ما حدث فى يوم المولد وهو يقسم له أن الأمر حدث دون أن يصدق حتى هذه اللحظة أنه حدث . . وتجهم وجه سلامة قبل أن يكمل الآخر حديثه . . قذف بكوب الشاى من يده إلى مسافة بعيدة ، وأطبق بيديه على عنق معوض . . أوقعه على ظهره وجثم فوقه وغرس أسنانه فى عنقه !

ولولت المرأة بصوت خافت جداً ، وجثمت فوق ظهر ابن اختها ، وغرست أسنانها فى عنقه من الخلف . . صرخ سلامة ، وهب واقفاً ، فهجمت عليه المرأة ودارت بيديها على ساقيه من الخلف واستماتت .

قام معوض ، فطلبت منه أمه أن يساعدها فى إجلاس سلامة ، وجلس الأخير وهو يحدق فيهما بكراهية ويلهث .

وركعت المرأة أمام ابن اختها تتضرع :

– أمك أنا يا سلامة . . اكتم الخبر ، الله يخليك ويبارك فى شبابك . . معوض الحيلة والسوالم يقتلوه ، وأقعد أنا حزينة طول العمر . . أمك أنا يا سلامة . . أرضعتك مع معوض من « شطرى » وشطر الأم (غالى) . . اكتم الخبر ربنا يبارك فيك ويحببك للحكام والعربان .

كان الشاب يلهث دون أن ينطق . . يقلب عينيه فى الأم مرة وفى الابن مرة ويبلع لعابه فى عسر والأم ماضية فى تضرعها .



بتول تحولت إلى (إنسانة) بلهاء . . مخلوق ذاهل تقاطيع وجهه تدل على أنه لا يعى شيئاً . . إذا وقع بصرك على الوجه بشفتيه المنفرجتين قليلاً ، وعينيه الواسعتين تدوران بلا معنى - تملكتك رغبة فى البكاء .

ثلاثة أيام قضتها لا تخرج من البيت . . تجلس فى حجرة داخلية ووجهها للجدار . . لا طعام ولا شراب خلال الأيام الثلاثة . . أمها تجلس بالقرب منها تبكى فى صمت ولا تشرب غير الماء . . بين لحظة وأخرى تتمتم الأم بكلمات شبه موزونة مثل : « قَسَّموا النوايب . . شِلْت لى نايب » . . مرات ترفع رأسها إلى أعلى وتقول : « هو قادر » . . أحيانا تحاور نفسها قائلة : « قال الغلب : آجى ؟ . . قلت له : آه ! » . . أطفالها الخمسة ينظرون إليها فى دهشة شديدة ، وهى تنظر إليهم باسترابة . . لم تخرج إلى إطعامهم إلا بعد أن رأت أن صراخهم سيعرضها للفضيحة . . تجلس بجوار بتول طوال النهار . . تعاملها بحنان غريب !

فى صباح اليوم الرابع أمالتها على صدرها ، وفتحت فمها بالقوة ، وسكبت فيه كوباً من الشاى باللبن ، وأخرجتها إلى فناء البيت . . لا تفارقها أبداً . . عند النوم ترقدها فى حضنها . . تغلق عليها باب الحجرة الداخلية ، وتسنده بنبوت زوجها الذى لا يأتى . . تستيقظ عند أقل حركة وتدور بذراعها على ابنتها . . أحياناً تجلس بجوارها على السرير ، فى منتصف الليل ، وتعدد على موتاها

بصوت خافت وتبكى . . فى النهار تحدق فى جدران الفناء ، كأنها تتوقع أن يعتليها أحد فجأة . . فكرت أن تذهب إلى زوجها وتخبره بما حدث ، لكنها خافت على ابنتها .

تسامعت الجارات (بمرض) بتول وجئن للزيارة . . فوجئن بهذا المخلوق الذاهل الذابل لا يتحرك ولا يتكلم ويحدق فى الفضاء بلا معنى . . قالت إحداهن : لابد أنها أصيبت بضربة شمس عندما تعرضت للعطش فى مولد الشيخ عامر ، واقترحت أن تغلى لها بعض الأعشاب مثل (حلف البر) . . وافقتها أم بتول لكيلا تشك فى سبب مرضها . . قالت جارة أخرى : لابد أن شيطانا عشقها و « تلبس » جسدها ، واقترحت أن تحضر أحد المشايخ ليتلو عليها القرآن ، فوافقتها والدة بتول أيضا . . لكنها ، بعد انصراف الجارات ، تعود إلى الجلوس بجوار ابنتها ، والبكاء على موتاها ، والتحديق فى أعلى الجدران !

* * *

٩

أدخل (معوض) يده فى فجوة بسور الجنينة وأخرج خرقة قديمة . . فتحها وأضاف إليها بضع ورقات مالية . . فرش الخرقة أمامه على الأرض ، وانهمك يحصى ما فيها . . قال لنفسه : لم يبق من المهر غير عشرين جنيهاً . . القمر ينير الجنينة حوله ، وظلال أشجار المانجو والنخل تملأ المكان خطوطاً سوداء . . فجأة أحس بحركة ، فرفع رأسه ينظر إلى أعلى السور . . قبل أن يتنبه جيداً ، فوجئ بجسم يسقط بجانبه . . عمامة ضخمة تلتصق بوجهه ، يطل منها وجه شمروخ الغاضب . . انعقد لسانه وظن نفسه يحلم . . وجهه المستطيل تجمد أمام الوجه العابس ، كالفرخ الصغير أمام الثعبان الهائل . . أحس بحركة وراءه فالتفت فى فزع ، رأى بضعة شبان يتقدمون منه . . أيديهم ممدودة وجذوعهم تميل إلى الأمام . . أيد كثيرة أطبقت عليه ، وفتحت فمه بالقوة وأدخلت به طاقية مكورة . . أحضر أحدهم نبابيت كثيرة وفرشها على الأرض كالحصيرة ، وأرقدوا (معوض) فوقها . . ألصقوا نبابيت أخرى بجنبه وفوق صدره ، وداروا عليه وعليها بالحبال !

أحضر أحدهم جوالاً طويلاً مؤلفاً من ثلاثة أجولة مخيطة بعضها فى بعض وتعاونوا حتى أدخلوه فيه . . أحدثوا فتحة صغيرة فى أعلى الجوال قبالة أنفه . . حملوه فيما بينهم ، والتقوا بسوالمى يدخل بحماره من باب الجنينة . . وضعوه

فوق الحمار فى وضع أفقى وركب أحدهم وراءه . . بدا منظر الجوال كالتابوت الفرعونى .

انطلق به راكب الحمار وسار الباقون يحرسونه على البعد .

* * *

اخترق راكب الحمار حيشان النخل ، وجسور الحقول ، خوفاً من ضوء القمر ، وحذراً من نجع الجوابر الذى فى الطريق . . بعد أن قطع شوطاً ، اعترض طريقه شاب من أصدقائه « الجوابر » . . قال له مهللاً :

– أنت تحمل (قصبْ) طبعاً . . أعطنى مما سرقت يا حرامى .

وتلعثم راكب الحمار . . واعترف له أنه سرق القصب فعلاً ، ووعده أن يحضر له نصيبه بعد عودته إلى البيت . . لكن الشاب أصر على أن يأخذ نصيبه الآن ، واقترب ووضع يده على الجوال ، فاصطدمت كفه بالنبابيت وصرخ فى نشوة :

– الله الله ! قصب جيد من نوع « القزاز » . . نزِّل حملك وأعطنى نصيبى !

قبل أن يكمل جملته فوجئ بيد تمسكه من الخلف . . عندما حاول تخليص عنقه ، رأى وجه شمروخ الغاضب يصرخ فيه :

– أنت وهو سرقتما حمارى يا لصوص ! . . أمامى إلى العمدة !

– أنا قابلته هنا والله يا عم شمروخ . . والله لم أر حمارك ولا أعرف أنه سرقه . . الحرامى هو لا أنا .

– أنت لص وهو لص . . أنت سر أمامى بحمارك ، وأنت تعال معى بصفتك شريكه .

ويبدو أن « شمروخ » نسى نفسه ، واندمج فى دوره . . فقد صمم على أن يصحب الشاب إلى العمدة برغم تضرعه إليه . . لم يفق إلى نفسه إلا بعد أن تلفت حوله فلم يجد راكب الحمار ، بل وجد أحد شبان قبيلته يقترب منه ويهمس له :

– نسيت نفسك ؟

فترك الشاب فجأة ، وركض هذا الأخير بأقصى سرعته وهو لا يصدق أنه نجا .

* * *

دخل الحمار بحمله فى بيت مهجور فى أقصى نجع السوالم . . حلوا وثاق معوض فى حجرة بلا سقف وأوقفوه أمام جدار . . قال له شمروخ قبل أن يخرجوا الطاقية من فمه :

– لو تفوهت بكلمة . . أقطم رقبتك .

لم يستطع معوض أن يقف . . ترك نفسه فسقط جالساً . . قال له شمروخ وهو يجلس قبالته !

– سأقيم لك عرساً كبيراً جدًّا وأدخلك على بتول ! موافق ؟

لم يرد . . يبدو أنه لم يكن يتوقع هذه النتيجة ففغر فاه دون فهم . . صرخ فيه وهو يلكمه :

– موافق يا بن الثعلب ؟

– أنا والله يا عم شمروخ .

كان يتكلم بصعوبة . . كأنه قضى بضعة أشهر مريضاً . . لهجته تدل على أنه لم يفهم ما عرض عليه ، وبدأ يدافع عن نفسه .

– الحكاية أننا ذهبنا نزور «كهرمان» . ثم جاءت لى بالعرق . . وبعد ذلك . . .

لكمه قائلاً :

– اخرس !

ثم التفت إلى الشبان ، وكلف كلاً منهم إحضارَ شيء ، فخرجوا جميعاً وهم ينظرون بعضهم إلى بعض فى شك . . انتظر حتى ابتعدوا وقال لمعوض بصوت كالفحيح :

– كهرمان مَنْ يا بن الثعلب ؟ . . الموضوع الذى تعرفه ، سر بينى وبينك ! لو أخبرت به أى إنسان سأقطع رقبتك ! فاهم يابن الثعلب !

– فاهم يا عم شمروخ .

– سأقيم لك عرساً تتحدث عنه البلاد الأربعة التى تجاورنا . . أنت تريد بتول . . أليس كذلك ؟

– أريدها يا عم شمروخ .

– سأقول للناس : إنك هربت من أبيك ، ودفعت لى المهر . فاهم ؟

– أنا كنت أجهز المهر . . لكننى كنت أخافكم !

ودخل أحد الشبان ، فأشار شمروخ لمعوض أن يصمت . . ثم أشار للشاب أن يساعده ، فى إيقاف معوض وإصلاح ثيابه وعمامته . . لكن الشاب وقف ينظر إليهما دون أن يتكلم . . ودخل بقية الشبان وهم يعقدون ما بين حواجبهم . . وقال أحدهم :

– أنت اتفقت معنا أن نقتله يا عم شمروخ . . أليس كذلك ؟

– ولماذا نقتله يا بن أخى ما دام الرجل يحبنا ويريد أن يناسبنا ؟ . . ثم

ما الذى فعله فى دنياه هذا المسكين حتى نقتله ؟

– لكنك قلت لنا : سنقتل (معوض) ، فذهبنا معك وأحضرناه . !

وقضى شمروخ وقتاً طويلاً فى إقناع الشبان بأن كل ما يهمه من الأمر هو خوفه من طلاق زوجاته بعد أن حلف أن يزوجه بتول ! فاقتنعوا إلا أحدهم أصر على قتله وخرج مغضباً . . وخرج شمروخ وراءه بسرعة ، وأعلن للنجع أن « معوض » جاء بنفسه لخطبة بتول ودفع له المهر !

* * *

١٠

– ومن يكون شمروخ ؟ . . من يكون ابن زينب العرجاء تدور بطبقها على البيوت تشحذ اللقم ، حتى يتحكم فى بنتى ويزوجها دون أن يستشيرنى ؟

وخرج النجع برجاله ونسائه يتفرج على محمد على السوالمى عارى الرأس ، بقميص يصل إلى ركبتيه وسروال أبيض ، يمسك بنبوت طويل ، ويتحزم بعمامته ، دلالة على أنه سيقاتل حتى الموت !

كان ضئيلاً نحيلاً أحمر شعر الرأس والشارب . . يبدو من لونه أنه كان أشقر ، فلفحته شمس أسوان وحولته إلى اللون البرونزى . . لم يكن له أهل فى القبيلة حتى الدرجة الخامسة . . يملك قارباً صغيراً لصيد الأسماء يجوب به نهر المنطقة .

– هل أنا مت . مدفون فى الجبانة ؟ . . بنتى أنا تتزوج مِنْ غير ما أعرف ! . . وافرضوا أننى هجرت نجعكم . . نجع اللصوص والشحاذين وقليلى الأدب ! هل معنى هذا أن أسمع كغيرى أن دخلة بنتى بعد يومين ؟ . . هل حدث مثل هذا فى كل بلاد المسلمين يا عرب ؟ . . واحد يسمع من الناس أن بنته ستتزوج ولا يعرف حتى اسم العريس ؟ . . فى أى زمن نحن ؟

وحرضه أكثر الواقفين . .ولاسيما الكبار فى السن وعلى رأسهم العمدة والشيخ علام . والذين رأوا فى وجوده ذريعة للتدخل :

– آخر زمن يا محمد يا على ! نحن كنا سنتدخل طبعاً ، لكننا انتظرناك . .

ماذا تقول القبائل والقرى حولنا إذا عرفوا أننا نزوج بناتنا غصباً عن عرسانهن ؟ . . لكن الحمد لله أنك وصلت وفى استطاعتك إيقاف هذه المسخرة !

وسار الموكب وراءه حتى وقف أمام بيته الذى تفصله ساحة واسعة عن مقدمة ديوان شمروخ . . ووقفت أم بتول فوق عتبة بابها . . على رأسها طرحة سوداء وعيناها زائغتان . قالت لزوجها :

– امش من هنا يا شغل النسوان يا مخرف . . أنت لا ترحم ولا تترك رحمة ربنا تنزل !

– رحمة ربنا يا ناقصة يا بنت الناقصة ؟ . . أنت أيضاً موافقة على زواج بنتك من واحد أحضروه فى شوال !

– هو جاءنا برجليه . . أراد أن يتحسَّب فينا ويتنسّب فقبلناه

– يتنسب يا بنت صانعة الأفران ؟ على الطلاق منك أنت ، ومن زوجتى الأخرى التى ظفرها أحسن منك ، أن عريس بنتك جاءوا به داخل شوال !

– لكنه سيناسبنا وقبلناه !

– ومن الذى يقبله بمنقارك هذا الذى يشبه منقار شيخ الغفر . . أنا الرجل أو أنت ؟ . . أنا سأقيم هنا ابتداء من اليوم . . وأى رجل يجد فى نفسه الشجاعة لأخذ بنتى بالقوة فليأت !

وجلس على الأرض أمام عتبة بيته ، ونبوته فى حجره ، ويداه حول ساقيه الرفيعتين كعودى البوص اليابس !

وجلس بجواره العمدة والشيخ علام وعدد كبير من شيوخ القبيلة وخرجت صوانى الشاى من البيوت القريبة تدور عليهم ، والابتسامات الشامتة فى

« شمروخ » على كل الوجوه . . والشيخ علام يصفق بيديه ويطلق ضحكته ككأكأة الدجاجة ويقول فى تحد :

-- نشوف من يقدر « يطيِّنها » على الثانى !

* * *

١١

اجتمعت قبيلة « الجوابر » فى منظرتها الكبيرة الأنيقة ، وتشاوروا فيما بينهم فيما يجب عمله .. وقال شيخهم :

– أنا لا أصدق حكاية الخطف . . لماذا يخطفونه ؟

– أنت عارف أن « شمروخ » حلف بالطلاق أن يزوجه البنت .

–لا . . لا . . اصرف نظر عن طلاقات شمروخ . هذا رجل يسكر ويقول أى كلام ، وينسى ما قاله بعد ساعة مثل بقية قبيلته ! الولد هرب وذهب إليهم كل البلد تعرف أنه يريد البنت والبنت تريده . . المسألة الآن هى ما موقفنا إذا تم الزواج ؟ . . هل نذهب إلى العرس على أساس أن العريس ابننا ، أو نقاطعه لأن الولد ذهب إليهم دون استشارتنا ؟

– نقاطع العرس .

– هذا رأيى أيضاً . . يجب أن نشعر الولد أنه بدوننا لا يساوى شيئاً . . يجب أن يحس بالفارق بين أعراسنا نحن وبين أعراس السوالم التى تشبه أعراس الشحاذين !

– ومن قال لك : إن العرس سيتم يا حضرة الشيخ ؟ . . ألم تسمع عن أبى البنت الذى جاء وأقام فى بيته القديم ؟

– سواء تم العرس أو لم يتم فإن هذا لا يعنينا فى شىء . . ليكن هذا قرارنا الأخير .

ودخل عليهم غلام يقول لهم : إن عبد الغنى الجوابرى رفض أن يحضر معه كما طلبوا منه أن يفعل . . قال له : إن كان الاجتماع من أجل ابنه فإن هذا لا يعنيه فى شىء ، وإذا كانوا يريدون منه أن يتبرع بشىء خاص للمنظرة فإنه غير مستعد لذلك ، لأنه لا يدخلها عادة ، ولا يريد منهم – بعد أن يموت – أن يجلسوا فيها ليتقبلوا فيه العزاء !

* * *

١٢

انعقد المجلس فى ديوان شيخ العرب شمروخ . . لم يزد أفراده هذه المرة عن بضعة شبان وثلاثة شيوخ من أهله الأقربين . . القبيلة كلها انضمت إلى العمدة والشيخ علام وقاطعته . . لكنه مضى فى إجراءات العرس وكأن شيئاً لم يحدث . . أحضر بضع كراسات وقسّم أوراقها إلى مربعات صغيرة ، وطلب من الشبان أن يكتبوا رسائل إلى كل أهل البلد كى يحضروا ليلة دخلة « ابنه » معوض على بنت أخيه « بتول » . . ولما قال له أحد الشيوخ – إن أهل البلد سيضحكون منه إذا قرءوا أن معوض «ابنه» فى أوراق «الدعوة» ، ضرب حاجز السرير بكفه وصرخ :

– أنا حر أكتب ما أشاء وأشطب عمن أشاء . . كل من لى « نقوط » عنده يحضره لى فى عرس « ابنى » . . أنا أريد أن أغيظ « الجوابر » وأبرهن لهم على أن عرس قبيلتنا لا يقل فى « فخامته » عن أعراسهم بما فى ذلك المبالغ التى يجمعها فى « النقوط » . . وأى واحد فيكم سيفتح فمه سأضربه بالرصاص !

كان الشبان يكتبون ، و « معوض » يجلس بجوار شمروخ – كابنه البكر كما أطلق عليه النجع فى تهكم – يتلفت حوله ولا يصدق ما يحدث أمامه .

وقال أحد الشيوخ بعد تردد :

– والبنت ؟

– مالها ؟

– أبوها هنا .

– عارف !

– العريس تحت يدك ، هذا مفهوم . . لكن كيف ستحصل على العروس ؟ !

لم يرد شمروخ . . طلب من الشبان الذين يكتبون « الدعوات » أن يضيفوا « ملحوظة » يقولون فيها : «كل واحد يحضر ومعه نقوطى الذى عنده ! »

ثم التفت إلى الشيخ الذى كان يحادثه وقال له موضحاً :

– هذه الملحوظة مهمة . .ربما ظن الناس أننى أريد أن أحتفظ « بنقوطى » لزواج ابنى الحقيقى ، ودفعوا مبالغ بسيطة . أنا أريد أن يكون عرس « معوض » من الأعراس التى تزلزل الدنيا ، وتتحدث عنها البلاد الأربعة المجاورة !

تردد الشيخ قبل أن يقول بلطف :

– شمروخ يا بن عمى ، قبيلة الجوابر كلها لن تحضر العرس . . قبيلة أخوال معوض ، لن تحضر العرس . . أغلب القبائل الصغيرة والعائلات المتفرقة ستجامل الجوابر وتقاطع العرس . . قبيلتك نفسها تقاطعك حتى أهلك الأقربون سيجامل أكثرهم العمدة والشيخ « علام » ولن يحضروا العرس . . ثم أين هى العروس التى تجهز هذا كله من أجلها ؟ ! اصرف نظراً عن الموضوع كله إن كان لى خاطر عندك يابن عمى بدل الفضائح !

ضرب شمروخ حاجز السرير وصرخ :

– العرس سيكون من الأعراس التى لم يسمع بها أحد . ولابد أن أغيظكم أنتم أيضاً يا« زبالة » العرب يا غنم !

والتفت الشيخ إلى شيخ آخر يجاوره ، وتبادلا نظرة تدل على أنه يشك فى عقل شمروخ !



كان محمد على السوالمى – والد بتول – يقضى حاجته فى الخلاء عندما فوجئ بكف غليظة تمتد من خلفه لتغلق فمه . . تبين فى الظلام ملامح شمروخ الغاضبة تنظر إليه فى قسوة ، ويد تطبق على فمه ، ويد أخرى تدور حول فخذيه ، وهو مكور فى صدر الرجل ، يسير به فى الظلام كأنه طفل فى حضن أمه ، وأصوات الضفادع والجنادب تدل على أنه يتوغل به فى الحقول .

فوجئ بنفسه يُسحق على الأرض فى قسوة ، وتنهال عليه اللكمات ، ويوثق بعمامته ، ويربط فمه بجزء فصل عنها ، ثم فتح عينيه بصعوبة شديدة ، بعد وقت لا يدريه ، ليجد نفسه فى إحدى حجرات بيت شمروخ الداخلية وفوقه تقف زوجته الوسطى ، وفى يدها مصباح غازى ، وصوت شمروخ يهدر لها :

– طلاق ثلاثة . . لو عرف أحد – أضربك بالرصاص !

* * *

نجع السوالم أكبر نجوع البلد ، وأكثرها عدداً ، وأعمقها فقراً . . لغة أهله قريبة من الفصحى ، تتخللها كلمات كثيرة انحدرت من الهيروغليفية . . العادات غريبة كأن أهلها يقيمون فى جزيرة العرب ، لولا أنها امتزجت بعادات لن تجد لها أصلاً ما لم تعرف الكثير عن حضارة وادى النيل القديمة .

ترعة عميقة تشق النجع وتتفرع فى ثلثه الأخير إلى فرعين صغيرين . . كأنما

النجع صورة مصغرة من « مصر » وهذه الترعة هى نهر النيل بدلتاه . . لكن الترعة لا ماء فيها . . فبعد أن حُفرت فى الثلث الأول من هذا القرن قام وفد من أعيان « الجوابر » وسافر إلى القاهرة وعاد بعد قليل ليعلن أن الحكومة « اكتشفت » أن مكان الترعة الحالى غير مناسب لرى البلد ، ولذا قررت حفر ترعة جديدة تبدأ من مزارع الجوابر ، ثم تطوف فى بقية مزارع النجوع .

كانت النتيجة أن هجر الكثير من السوالم آبارهم القديمة اعتماداً على الترعة الجديدة فى البداية ، ثم خجلوا من استخدام « السواق » بعد أن رأوا الجوابر يهجرونها من ناحية .

ماء الترعة الجديدة – التى تبدأ من مزارع الجوابر – لا يصل إلى السوالم إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه ! . ماء قليل متخلف عما استغنت عنه بقية النجوع ، ويرفض أن يصعد إلى أرضهم العالية .

آبار السوالم كثيرة وكانت غزيرة الماء قبل أن يطمرها التراب . . بيوتهم القديمة كانت عالية ولها هيبة قبل أن تحل محلها هذه البيوت القميئة . . درجات السلالم هى التى تدل على العز القديم . . أكثر هذه البيوت القميئة أمام كل منها بضع درجات مستطيلة غاية فى الجمال . . لو أنك انحنيت أمام إحدى هذه الدرجات وأزلت عنها الطين العالق بها لوجدتها من صخور أسوان العتيقة المنحوتة بفن ، ولابتسمت فى وجهك الخطوط الهيروغليفية لتقول لك : هأنذا ! ولو غامرت واقتحمت نبات الحلفاء الغزير المتجهم وأبعدت عن وجهك هيش العنكبوت ، واقتربت من بئر مطمورة – لراعك جمالها الهندسى ، وأقواسها الصخرية الرائعة التى ازدانت بالنقوش الفرعونية البديعة .

مصيبة السوالم أنهم متكبرون ولا يعترفون بأنهم نجع كسول . . يتغنون بالعز القديم دون أن يصنعوا مجداً جديداً ! حتى نخلهم كله نخل عجوز مما زرعه لهم الأجداد . كلما وقعت نخلة ، تركت مكانها شاغراً وإن قامت نخلة جديدة فالمصادفة البحتة هى التى أنبتتها !

ربما الشيء الوحيد الباقى ، والذى يحفظ لهم شيئاً – من الهيبة هو كثرة عددهم ، ومقدرتهم على القتال فى عالم لا يؤمن أن هناك شيئاً اسمه « الحق » ما لم تصاحبه قوة تدمير !

كانوا فى ذاك اليوم يتثاءبون ، وهم يتجمعون فى ساعات الأصيل وسط الساحات وأمام الدواوين عندما دوت الطبول وزمرت المزامير وانطلقت الأخبار فى النجع :

– شمروخ أحضر « الغوازى » من مدينة « أسنا » نساء عاريات وجميلات ، يتراقصن أمام الزمر ، ويلعبن بحواجبهن للرجال ! الحقوا تفرجوا على البدع الجديدة !

وتحول نجع السوالم إلى زحام يفوق زحام مولد الشيخ عامر . . حتى قبيلة الجوابر جاءت برجالها ونسائها وأطفالها تتفرج على مدى « الكفر » الذى تردى فيه شمروخ !

. . شبان القرى المجاورة ، سرقوا حاصلات آبائهم وجاءوا يتزاحمون . . أيهم يدفع مبلغاً أكبر للراقصات ليحظى بأكبر قسط من الاهتمام ، وشمروخ يصول ويجول ، يأمر هذا ، ويشخط فى ذاك ، ومعوض يجلس على أريكة أنيقة بملابس العرس ، وبجواره المأذون الذى انتهى من كتابة العقد ، وأمه نفسها حضرت مع الجوابر وكادت تركع لشمروخ الذى وصفته بأنه « ولى من

أولياء الله الصالحين » . . على حين كان البعض يتندرون على محمد على السوالمى – الرجل الجبان – الذى وافق على العرس ، بعد أن حصل على عشرة جنيهات من شمروخ وذهب إلى نجع زوجته الجديدة !

ورفعت إحدى الراقصات ساقها إلى أعلى ، وتأوهت فى « الميكروفون » بحيث سمعتها البلاد الأربعة المجاورة . . فمال الشيخ علام على العمدة الذى كان يجلس بجواره فى مقدمة الصفوف وقال له فى هيام :

– انظر إلى الطين يا عمدة . . لو وافقت هذه المرأة – التى تشبه فرس شيخ الجوابر – أن تطيّن منى – كتبت باسمها طينى كله ، وأنزل لها عن مشيخة البلد !

وتأسف الناس كثيراً عندما حانت لحظة « زفة » العريس . . لأن هذا يعنى نهاية هذه الليلة الأسطورية التى لن يجود الزمان بمثلها !

* * *

١٤

دخل شمروخ بيته آخر الليل ، مرتاح البال . . أخيراً ستر الله « بتول » ذات الوجه المبارك ، وستر قبيلة السوالم العظيمة دون أن تعرف هى نفسها ما فعله من أجل سمعتها . . مازالت أصوات المزامير تطن فى أذنيه ، وما زالت أصوات الزغاريد تشيع فى روحه . . اللهم لك الحمد يا ربنا يا خالقنا يا ستار على عبادك يا كريم . . هيا سافر إلى القاهرة أو إلى أم درمان ، بعد أن تكلفت الكثير فى هذه الزيارة ، وربك معك يعوضك عما فقدته . . والعرس كان لا مثيل له ولك الشكر يا ربنا يا كريم . . كل البلاد المجاورة ستتحدث عن عرس السوالم - سيدة القبائل - وعن شيخ العرب شمروخ زعيم قبيلة السوالم التى ليست فى بر مصر كله قبيلة مثلها .

ودخل حجرته الداخلية يحل وثاق محمد على السوالمى ، وكانت زوجته الوسطى تقف بجواره ، وفى يدها مصباح غازى .

لكن الرجل لم يتحرك بعد أن فكوا وثاقه . . أيقظه شمروخ فلم يستيقظ ، هزه ، فلم يرد ، ووضع يده على صدره فلم يسمع لقلبه نبضاً !

رفع رأسه إلى زوجته وقال لها وهو يلهث :

- الرجل مات يا بنت العم !
- مات ؟
- مات يا بنت العم !

* * *

كان يسير بين رجال الشرطة رافع الرأس . . جموع غفيرة من النجع تسير وراءه ، والنساء يبكين ، ومغربية بنت كذاب القبيلة تولول وراءه :

– لا غيب الله صوتك يا عمود قبيلتنا !

كان يقول لنفسه لم أفعل إلا الخير . . لن يتخلى الرحمن عنى ؛ لأنى لم أفعل إلا الخير . . وحينما صعدوا به الجسر الذى يفصل نجعه عن المزارع التفت وراءه . . ألقى نظرة أخيرة على نجع السوالم الذى أحبه أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ، واستأنف سيره مرفوع الرأس .

ابتسامة غير مفهومة ..

١

ضجيج ميدان رمسيس يصلك فى الطابق العاشر! شىء غريب أن تصر على النزول فى هذا الفندق. ربما يعطيك إحساساً بالقرب منها.. الإسكندرية الجميلة.. مرتع الصبا والشباب.. تنظر إلى البحر فلا شىء يحد بصرك! كأنك تعانق الطبيعة.. شعر سعاد يتطاير فى الهواء، وحين يريد لنفسه الاستقرار يلتف حول عنقك.. غريب أنت هنا.. الناس يتدافعون حولك بالمناكب، وإحساسك بالوحدة يزداد.. من الذى يطرق الباب الآن؟.. لعله عامل الفندق خفيف الدم، جاء بطريقة جديدة مبتكرة لانتزاع البقشيش!

– أهلاً عباس!

حقيبته الجلدية المنتفخة فى يده، وقميصه الأزرق يضيق بجسده المدملج.. تعانقنا برغم مضى ساعة على فراقنا.. خطا إلى الداخل وغاص فى المقعد المريح.. قال متهكماً:

– شاورت نفسك يا عم؟

لهجته القاهرية تشوبها لكنة من ريف الدلتا.. قلت:

– أنا مرتاح هنا.

رفع ذراعه الممتلئة وواصل تهكمه:

– طبعاً.. رجل غنى.. عشرون جنيهاً فى الشهر للنوم وحده!

– لوكان البيت بيتك لذهبت معك، لكن قريبك هذا لا أعرفه.. ربما

كنا مختلفى المزاج .

مضى فى العدّ على أصابع يديه :

– أولاً هو سمع عنك وأحبك جداً . . ثانياً هو إنسان ابن حلال وستحبه جداً . . ثالثاً أنا شخصيًّا أحببتك بمجرد أن أشاروا إليك وقالوا : موظف جديد منقول من الإسكندرية . . رابعاً أنا لا أقول لإنسان أنا أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلا . . خامساً ستكون لك حجرتك الخاصة ، وتستطيع الانعزال فيها إذا شئت . . هات سيجارة !

اضطررت إلى فتح النافذة ، وإزاحة ستارة الشرفة الصغيرة مفضلاً دخول الشمس الحارة على الاختناق فى سحب الدخان .

أظهر الضوء وجهه المتورد وقميصه نصف الكم وحذاءه المترب :

– هيا بنا يا أستاذ .

– قلت لك مرتاح هنا .

ضرب مسند المقعد ووقف :

– لن أنتقل من مكانى إلا ورجلى على رجلك . . اجمع ملابسك من غير معارضة . . وعلى فكرة . . أنا عازمك على الغذاء !

* * *

دفع بمفتاح الشقة فى الباب وهو يثرثر :

– حدائق القبة من أجمل مناطق مصر . . وحجرتك بالذات تطل على حديقة صغيرة فى غاية الروعة .

فتح الباب على صالة واسعة عارية . . ليس بها من الأثاث غير مائدة أنيقة

لامعة الزرقة ، بجوارها مقعد خشبى وحيد ، أخنى عليه الدهر ، بدا بجانبها كالشحاذ .

فى الجدار الأيمن إطار فاخر يضم صورة كبيرة لشاب فى الثلاثين ، يرتدى حلة أنيقة . . شاربه الصغير يعلوه أنف وسيم تنحدر من أعلاه نظرة متعالية . . خصلة شعر تتهدل على جبهته تشبه منقار الببغاء ، فى منتصف صدره كرافتة عريضة أعتقد أنها فى الأصل حمراء .

– مدحت .

أشار عباس إلى الصورة بذقنه ، بعد أن أمال مؤخرة رأسه إلى الوراء ، ورفع بصره يتأملها فى إعجاب كأنه لم يرها إلا الآن .

وضع الحقيبة وورقة اللحم وكيس العنب على المائدة ، وقادنى إلى الحجرة المواجهة للصالة حتى وقفنا على بابها :

– ما رأيك ؟ . . واسعة ، وسقفها عال ، ولونها فى بياض اللبن .

أعتقد أن فمى كان مفتوحاً على اتساعه لحظتها ، وأن لسانى كان يتمايل فى فراغه كرقبة الدجاجة حين تستريب !

حجرة واسعة عالية السقف ، تضم من « الأثاث » بضع دوائر كبيرة من خيوط العنكبوت ومجموعة من الصحف المكورة مصفرة اللون ، وهلاهيل زرقاء ، وسوداء ومغبرة ، وعلب ورنيش فارغة ، وإناء كبيرا به فحم محترق ، وماشة ، وجوزة بلورية بها ماء أصفر ، وبضعة أحجار بعضها محطم الحواف ، وكومة من الأخشاب كانت فى الأصل مقاعد .

استدرت على الفور ونظرت إلى حقائبى .. من غير المعقول أن أجىء للسكنى مع إنسان لم أعرفه إلا بضعة أيام ، ثم أتوقع راحة البال !

انتبه عباس إلى استدارتى المفاجئة ، فقال بصوت ودود :

– اطمئن . . عندى سريران فى غرفتى . . أنت ضيفى إلى أن تجهز نفسك . . تعال أفرجك عليها .

أول ما وقع عليه بصرى فى حجرته ، امرأة بملابس النوم ترقد على سريره . . تقترب من الأربعين ، مستديرة الوجه ، مهوشة الشعر ، أنفها أكبر قليلا مما يجب .

رمقتنى بنظرة فاترة ، ثم تمطت جيدا وتثاءبت .

تراجعت إلى الوراء ، واندفع عباس إليها مهللاً .

– أهلا حورية . . كيف حالك يا حورية ؟ . سلامات يا شيخة !

انسحبت إلى الصالة وجلست على المقعد . صوت عباس العريض يصلنى واضحا ، ولا يصلنى منها غير همهمات :

– بسيطة ياحورية . . ولا يهمك . . والله العظيم ؟ . . قولى الحقيقة . ها ها ها ! . . عارفة يا حورية . . أنت أظرف واحدة عرفتها . . صدقينى . . أنا لا أقول لإنسان أنا أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلا . . لا لا لا . . . لا تشغلى بالك . . بسيطة قلت لك . . أستأذنك دقيقة واحدة .

وسمعت خطواته فى الطرقة الطويلة التى تصل حجرته بالصالة . . وطالعنى بجسده المدملج يتقدمه بطنه المرح . . اتكأ بمرفقه على المائدة ، ومال بجذعه وهمس قرب أذنى :

– لك غرض ؟

– لا .

– السبب ؟

– فى حالة حب .

– حب ؟ . .قلت حب ؟ . . سعادتك من عشاق السيما المصرية ؟

– جمالها متوسط . . ثم إنى مسافر إلى الإسكندرية بعد يومين .

– طيب هات جنيها !

ذهب إليها بالجنيه ، وعاد ليدخل المطبخ . . خرج منه يحمل إناء كبيراً ممتلئا إلى نصفه بالماء ، وسكيناً . . وضعها على المائدة ، وانهمك فى إزالة الأختام الحمراء من اللحم ، وهو يقول فى غيظ :

– مدحت عجيب فى تصرفاته . . قال لها : سأعود بعد نصف ساعة ولم يعد ! دائماً يوقعنى فى مشاكل فارغة . . سأترك له الشقة فى أقرب وقت !

حدقت فى وجهه مندهشاً . . الرجل الذى أغرانى بالسكنى معه يفكر فى الرحيل !

دون أن يتنبه إلى دهشتى عادت إليه لهجته الطفلية البريئة :

– حورية تستحق معاملة بهذا الشكل ؟ . . حورية ؟ . . بيضاء القلب !

رمى السكين على اللحم ، وذهب إليها ، فجاءنى صوته مجلجلا :

– أقول يا حورية . . ما رأيك فى أنى عازمك على الغداء ؟ . . السبب ؟ . . لا . . لا . . لن أقبل أى عذر . . إحنا إخوة يا حورية .

عند عودته مر على المطبخ ، وخرج منه بطبق أبيض آخر أفرغ فيه العنب وهو يهمس لى :

– حورية صممت على المشى . . أنا لم ألح . . بصراحة ليس لى غرض .

وبدت المرأة جميلة عندما ارتدت ثيابها وتزينت . . حيتنا فى ود واتجهت نحو الباب . . قبل أن تصله صاح فيها بلهجة معاتبة :

– نسيت حاجة يا حورية ؟

عادت إليه من جديد وأعطته جبينها . . أدار عنقه وطبع عليه قبلة طويلة لها صوت مقزز !

كانت يده اليمنى لحظتها تمسك بالسكين ، وأصابع يده اليسرى تقبض على قطعة لحم كبيرة كالمخلب .

بعد انصرافها قال لى مفاخراً :

– أنا قاطعت الأفلام المصرية من عشر سنوات !

ثم ابتسم فى سعادة وهو يغمز بعينه الكبيرة الجاحظة كعين الضفدعة !

* * *

٢

سرير وصوان صغير وثلاثة مقاعد ومنضدة اشتريتها على عجل ، وجهزت حجرتى . . هذا أسهل من الذهاب إلى الإسكندرية ، وإحضار أثاث من هناك ، وإضاعة الوقت – المخصص لصحبة سعاد – فى تعقيدات النقل وربكته .

جاء مدحت ورحب بى فى شهامة ، وساعدنى فى فرش الحجرة ، وبذل عباس جهداً مشكوراً ، وفى التاسعة مساء ، من يومى الأول كانت حجرتى مستعدة لاستقبالى .

أحب الجو الأسرى حقًّا ، لكننى لا أحب أن أشارك أحداً أو يشاركنى أحد فى حجرتى .

فى العاشرة تماما دق جرس الباب . . كنا نجلس فى حجرة عباس وأمامنا أكواب الشاى ، عندما دق جرس الباب . . قال مدحت مبتسما :

– الإخوان وصلوا . . افتح يا عبس .

بدا عباس فى حجم مضاعف داخل منامته ذات الخطوط الحمراء وهو يقف . . اكتسى وجهه الأحمر الممتلئ بسعادة غامرة وهو يتجه ناحية الباب .

أصوات كثيرة ملأت الصالة فجأة . . أصوات غريبة خشنة لأناس لا يعرف من يسمعهم : هل كانوا يتناقشون أو يقتتلون ؟ . . اقتربت أصواتهم عندما دخلوا فى بداية الطرقة . . لم أسمع أحدهم يسلم على عباس أو يكلمه . .

كانوا منهمكين فى مناقشة حامية فى الطريق ، وهم يكملونها الآن على اعتبار أن الشقة امتداد للطريق .

أربعة أشخاص وقفوا فى مدخل الحجرة . . شبان فى الثلاثين من عمرهم يرتدون قمصانا مشجرة أنيقة وبنطلونات ملونة . . طول أحدهم مسترع للنظر ، ولأحدهم قامة قصيرة وكرش كبيرة ، صمتوا فجأة عندما وقع بصرهم على ، ثم هجموا يصافحوننى فى حرارة وعباس يقدمنى لهم فى تفخيم مبالغ فيه . . ذهب مدحت إلى حجرته وعاد يحمل منامتين ، وفتح عباس صوان ملابسه وأخرج منامتين . خلع الأربعة ملابسهم وارتدوا المنامات ، واتجهوا إلى الشرفة الملحقة بحجرة عباس ، وتربعوا على « الشلت » التى فوق سجادة داكنة :

جاء عباس بجوزة وطبق كبير غاص بالفحم المحترق ، وطبق آخر به مجموعة من الأحجار الفخارية وبواكى المعسل . . وانهمك أحدهم – وكان نحيفا بارز العظام يعبئ الأحجار بالمعسل .

وقال لى أطولهم بصوت أجش وبلهجة سوقية :

– الشقة حصل لها الشرف بوجودك يا حسن بك .

قال ذلك وهو مشغول بفتح ورقة سلوفان .

وأشار القصير البدين إلى صدرى وقال بدون اهتمام :

– الصلاح ظاهر على وجهه .

فقاطعه عباس بقوله :

– أنا أحببته منذ أول لحظة رأيته فيها . . بمجرد أن قال : إنه منقول من الإسكندرية أحببته . . وأنتم تعرفون طبعا أننى لا أقول لأحد – إننى أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلا .

وسرت همهمات فهمت منها أن السعادة قد أطبقت على أنفاسهم جميعاً لرؤيتى ، فشعرت بحزن قاتل !

ودارت الجوزة ، وعلت القهقهات الخشنة على النكات الفجة . . وقال لى عباس وهو ينفخ فى كفيه كأنه يدفئهما :

– المعيشة هنا ميسرة ومبهجة . عندنا شغالة تجهز لنا الطعام وتغسل الثياب ، ولكنها فى إجازة الآن ، وعندنا أصحاب نحبهم ويحبوننا ، وعندنا أعمالنا ، وكلنا نتمتع بصحة جيدة ، والحب متوافر ، وستكون فى غاية السعادة يا حسن .

وهززت رأسى أوافقه ، وأنا أفكر فى أحسن طريقة لبيع الأثاث والعودة إلى الفندق !

* * *



ظهرت حقول الموز تلوح بأذرعها ، والقطار يهدئ ، من سرعته ، يدخل بى محطة سيدى جابر . . كدت أجهش للميدان المألوف حين لمحته ، وتخيلته يرحب حين رآنى . . وقفت أكثر من عشر دقائق أتأمل العمارة المواجهة ذات القباب كالمباخر المقلوبة ، وطالبات الثانوية العامة يرتدين الزى العسكرى وينظمن المرور .

– شقة مفروشة يابك ؟

– متشكر .

هل أذهب إلى بيتنا أولا أو أذهب إلى بيت سعاد ؟ . . المسافة واحدة ولا تزيد عن عشر دقائق سيراً على الأقدام ، والأفضل أن أذهب إلى البيت وأغير ملابسى أولا .

بلا شعور منى وجدتنى أجتاز ميدان كليوباترا الحمامات وأهبط المنحدر من شارع « بوباستس » . . هذا الهواء ذو النكهة الخاصة أنا أعرفه . . وهذه الوجوه فى الشوارع أعرفها بالنظر ولى فى كل ناصية ذكرى . .

وقفت أمام باب سعاد وطرقته فى لهفة ، ففتحت لى أمها . . ضحكت حتى اهتز عودها الفارع ، والتفت حولنا بناتها الثلاث الصغيرات يهللن ! . بحثت عن سعاد بعينى فلم أرها . . حين سألت أمها عنها لم ترد . . قادتنى من يدى إلى حجرة النوم وبناتها يتقافزن وراءنا . . فوق السرير العريض ذى الورود البرونزية

فى مسنده رأيت كومة كبيرة من الملابس الجديدة المستوردة . (بلوفرات وفساتين ، وسترات ملونة ، وقمصان نوم ، ومجموعة من الساعات الثمينة) . وقالت لى وعيناها تزغردان : إنها هدايا وصلتهم توًّا من « حاتم » ابن خال سعاد الذى عاد أخيرا من ليبيا .

لم أكن أعرف من قبل أن صلة القرابة بين حاتم وسعاد قد اقتربت حتى وصلت إلى ابن الخال مباشرة . . وأحسست أنى مقبل على عهد جديد لم أستعد له ، وأن الطريق غاص بالمفاجآت .

عدنا إلى الصالة وسألتها عن سعاد ، فقالت : إنها ذهبت ، هى وأخت حاتم إلى كازينو « الشاطبى » ومعها . . حاتم !

حين رأتنى أنظر إليها باستغراب – جلست بجوارى على الأريكة وقالت بنبرة اعتذار :

– والدة حاتم وأخته وأخوه هناك . . واتفقنا أن نلحق بهم بعد قليل . لم أرد ! شربت عصير المانجو الذى قدم لى بسرعة وخرجت .

* * *

قالت لى أمى – وأنفاسها تتهدج – إن عينها كانت ترف منذ خمس دقائق ، وقامت من فورها لتصعد إلى سطح البيت . ومن وقفتى فى الشرفة سمعت كأكأة الدجاج ، فعرفت أنها تقوم بحركة اعتقالات فى عشة الفراخ . . لكننى لم أنتظر هبوطها . . غيرت ملابسى بسرعة ، وركبت عربة أجرة إلى كازينو الشاطبى .

مائدة تطل على البحر جلس إليها كل من سعاد وحاتم متواجهين أخت حاتم وشاب آخر لا أعرفه جلسا إلى مائدة مجاورة . . عانقنى

حاتم بحرارة ، واقترح أن نجلس – نحن الخمسة – إلى مائدة أكبر فى الداخل . .
بدا حاتم فى صحة جيدة ، لولا كرش صغيرة بدت مصممة على فرض نفسها عليه حلة حريرية زرقاء وعلى سعاد رداء أبيض فاخر لم أره عليها من قبل ، خمنت أنه ضمن الهدايا ، ولاحظت قشوراً على ذراعها العارية من أثر نزول البحر .

مضى حاتم يروى لنا مشاهداته فى ليبيا .. دهشت حين رأيته يستبدل بلهجته القديمة ، لهجة جديدة تصدر من حلقه . . إشارات جديدة اكتسبها أيضاً ، منها وضع يده فى جيب سترته وهو جالس . . فلان قال لى : يا باشمهندس ! وفلان قال لى : « طول عمرك عبقرى يا حاتم بك ! » . . شغلتنى حركاته الجديدة عن متابعة ما يقول . . الشاب الآخر يصغى باهتمام ، ويوجه إليه الكثير من الأسئلة ، فاتجه إليه حاتم بكله . . انتهزت الفرصة ، وكتبت على هامش صحيفة كانت على المائدة : « قومى بنا » وقربتها من سعاد . . أشارت بطرف خفى تطلب القلم . . تظاهرت أنها ترسم طيوراً على الهامش ، وكتبت لى : « أنا مرتبطة بالضيوف بتكليف رسمى من ماما . . اليوم لهم ولنا غد . . أحبك » .

صخبت أمواج البحر فى أذنى فقمت .

* * *

فى التاسعة صباحا كنت أهبط منحدر شارع بوباستس . . صعدت إلى الطابق الثالث وضغطت الجرس . . فتحت لى سعاد وهى تدور حول نفسها وتضحك . . تشمر عن ذراعيها وعلى صدرها مريلة من المشمع الشفاف وعلى أمها مثلها . . عرفت أنهم يستعدون لإقامة وليمة لأسرة حاتم . . مائدة الطعام

البنية ، فى وسط الصالة ، عليها أربع فازات غاصة بالورد . . ثلاث (لوحات) جديدة على الجدران ، تضمها إطارات فاخرة ، تمثل غابات وأنهارا تنتمى إلى مرحلة ما قبل الرسم !

جلست إلى أريكة فى الصالة ، وسعاد تعدنى بالذهاب معا إلى السينما مساء اليوم . . المشابك السوداء ، كالمواسير ، تموج فوق شعرها فاحم السواد ، والسعادة واضحة فى عينيها . . لاحظت أن الطرقة التى تصل الصالة بالمطبخ جاءتها ستارة مخملية بنية .

عادت أخوات سعاد الثلاث من الخارج يحملن حقائب شبكية غاصة بالخضراوات والفاكهة . . هللن لى وأحدثن ضجة صغيرة . . وشهقت الأم عندما تذكرت شيئًا مهمًا ، ودخلت حجرتها وعادت بجهاز تسجيل . . فتحته أمامى ، فتدفقت منه أغنية بدوية تصاحبها طبول عنيفة . . وزادت ضجة أخوات سعاد بشعورهن المشوشة وثيابهن الجديدة فوق الركبة . . واعتذرت لى سعاد فى رقة ؛ لأنها ستنشغل عنى فى المطبخ . . دقت الطبول فى رأسى بعنف ، والستارة المخملية تهتز بعد أن توارت خلفها . .

* * *



أكياس صفراء فارغة تتناثر على أرضية الصالة ، وطبق الفحم المحترق يتربع فوق المقعد .

انقبض صدرى فى الحال ، أمى تعشق النظافة إلى حد المرض . . ورقة صغيرة ملقاة على الأرض نقدم من أجلها ، أنا وإخوتى ، إلى المحاكمة !

الحجرات الثلاث مفتوحة على مصاريعها كالعادة ، ومستطيل من الشمس يعبر نافذة حجرتى ليقتحم الصالة . . الجوزة غارقة وسط كومة من قشر البطيخ وطرف غابتها متجه إلى أعلى كالمدفع المضاد للطائرات !

تحت الدش البارد قررت أن أكتب لسعاد رسالة قصيرة أطلب منها أن تحدد موقفها . . يجب أن تكون لهجة الرسالة معتدلة ، والشرفة الملحقة بحجرة عباس خير مكان لكتابتها .

زجاجة زبيب صغيرة فارغة على « الكومودينو » الملاصق لسرير عباس . . فوق السرير كراسة صغيرة على غلافها نجمات ثلاث بالحبر الأزرق . . فتحت الكراسة كيفما اتفق وعرفت خط عباس الأنيق :

« لا نعمات ولاسميرة ولا اعتدال ولا رتيبة ولا سائر الأخوات العزيزات يشفين غليلى يا أمينة ، لكنك لاترحمين . . الوصول إلى قلبك أصعب من عبور شلالات نياجرا فوق سلك رفيع . . مصيبتى أننى تعلقت بك إلى حد الجنون . . برغم القسوة وبرغم الصدود ، أتعلق بك ولا أدرى ما المصير ؟ » .

أغلقت الكراسة ، وذهبت من فورى ، فأغلقت باب الشقة بالترباس ، وعدت إلى حجرتى ، والكراسة فى يدى . . زيادة فى الحيطة ، أغلقت باب حجرتى ، وتمددت على السرير ، عازما أن أقرأ الكراسة من أولها إلى آخرها . . حقا أن نصائح المرحوم أبى تحرم الكشف عن أسرار الناس ، لكن الاختلاف بين الأجيال من الأمور المشروعة ! .

الزميل عباس من أصحاب الصولات فى دنيا النساء . . ذكر اسم أكثر من عشرين امرأة فى كراسته ! بعضهن ذكر الأوصاف التى تعجبه فيهن بالتحديد . . كلها أوصاف حسية ومتناقضة . . حتى فى نظرته الحسية لايشترط مواصفات معينة . . كلهن ممتازات والمهم هو النوع ! لاحظت أن « سميرة » شغلت وحدها ربع الكراسة الأول . . اعتدال ورتيبة وعدد آخر شغلن الربع الثانى . . لكن « أمينة » استعصت عليه حتى شغلت النصف الأخير كله . . لياليه الطويلة . . قسوة قلبها . . عيناها الكهربيتان . . خوفه من الجنون ! ولم أجد فى الكراسة أى شىء عن أسرته أو عن علاقاته بزملاء العمل . . وبدا لى الأمر فى النهاية فى غاية التفاهة . . أعدت الكراسة إلى مكانها ونسيت الأمر تماماً .

تذكرت سعاد فانتابنى الضيق . . ثلاثة أيام قضيتها بالإسكندرية وهى مشغولة بحاتم وأسرة حاتم ! أمه وأخته وصديق أخته – أو ربما خطيبها – لايفارقوننا . . ندخل السينما وهم معنا ! نذهب إلى مكان عام وهم حولنا ! المرة الوحيدة التى اقتربت منها إلى حد ما كانت فى سينما « لاجيتيه » . . احتضنت كفها بكفى وهى تجلس بينى وبين حاتم . . أغاظنى منها متابعتها للفيلم الذى لم أفهم منه شيئاً . . سأقول لها فى الرسالة : إما أنا وإما حاتم ! الأمور

يجب أن تكون واضحة ليعرف كلانا طريقه . . لابأس من أن تكون اللهجة شديدة .

فى أول سطر كتبت كلمة « سعاد » . . شطبتها بعد قليل وكتبت . « أختى العزيزة سعاد » . . فكرت قليلا ، ثم شطبت السطر وكتبت « سعاد » . . أخيرا قررت أن أؤجل الكتابة إلى الليل . . فكرت للحظة أن أذهب إلى مقهى لكننى عدلت . . تناولت رواية قديمة ومضيت أقرأ . . بعد بضع صفحات مللتها ورميتها على المائدة . . خرجت إلى الصالة فأغاظتنى الفوضى الشاملة . . تعجبت من حجة غياب الشغالة التى أحالت البيت إلى فوضى . . بحثت عن مكنسة حتى عثرت على واحدة . . كنست الصالة وألقيت بقشر البطيخ فى صفيحة القمامة . . بحثت عن شىء آخر أفعله فلم أجد . . ثنيت إحدى الوسائد على حافة السرير ، واتكأت عليها بمرفقى . . هببت مذعوراً على صوت الجرس . . نمت فى مكانى دون أن أدرى . . طرقات على الباب تصاحب صوت الجرس . . نسيت أن أفتح ترباس الباب ليدخل الزميلان عند عودتهما . . فتحت لأجد مدحت أمامى . . قميص رصاصى نصف كم على بنطلون من نوع القماش نفسه . . صافحنى فى حرارة وجلس على المقعد . . سألنى إن كان عباس قد جاء ؟ فأجبته بالنفى . . ضحك على إغلاق الباب بالترباس وغمز بعينه . . لم أجد ما أقوله فضحك وضحكت . . دهش قليلاً لما رأى الصالة نظيفة على غير العادة . . سألنى فى لهفة :

– الشغالة وصلت ؟

– لا .

– من الذى نظف الصالة إذن ؟

– أنا !

رفع رأسه يحدق فى وجهى بدهشة ، ثم مالبث أن ضحك وقام إلى حجرته . . بعد قليل سمعته ينادينى من شرفة عباس . . ذهبت إليه فوجدته يجلس بمنامة مشجرة . . ثرثرنا فى أكثر من موضوع . . فى مواجهة الشرفة جزء من حديقة لبيت بدا مهجوراً ، وجزء من ساحة واسعة لمدرسة إعدادية . . قال مدحت إنه دخل اليوم فى مناقشة حادة مع مدير المصلحة ، وإن المدير سبق له أن شكاه إلى عمه وإنه شبع من تأنيب عمه له ، وإنه ضاق بالأمر كله ، ولذلك يفكر فى الاستقالة ، فدهشت :

– الاستقالة ؟

– لاحل غير ذلك . . المرتب لايكفى وأهلى عودونى كثرة الإنفاق ، والآن لايريدون أن يروا وجهى !

اكتشفت أننا جميعاً نحصل من أُسرنا على مبالغ فوق مرتباتنا ؛ مما يدل على أن وجودنا على هذه الأرض – قد « أفاد » الاقتصاد القومى كثيراً !

– وهل فكرت فى عمل آخر ؟

– عمل حر .

– ورأس المال ؟

– موجود .

سادت بيننا فترة صمت قال بعدها :

– أملك عشرة أفدنة . . ربما بعت نصفها مرة واحدة .

– لك خبرة فى عمل معين ؟

– سأشارك (كمال شاهين)

- من كمال شاهين ؟

دهش قليلاً ، لكنه قال فى هدوء .

- ألا تعرف (كمال شاهين) ؟ . . الذى سهر معنا ؟

- هم أربعة . . أيهم كمال شاهين ؟

- الطويل . . ذو الفك العريض والصوت الخشن .

- ماعمله ؟

- قطع غيار السيارات . . اتفقنا أن نتوسع .

وجاء عباس يحمل حقيبته المتفخة ، ومعها كيس فاكهة ، وثلاث دجاجات قال : إنه اشتراها بمساعدة صديقه موظف الجمعية التعاونية برغم الزحام الشديد من أجل الأرز والصابون ! ودخل المطبخ وعمل فى همة وهو يتشكى غياب الشغالة الذى أوقعه فى مسئولية طهو الطعام ، وسب صبى الكواء الذى يأتى مرة ويغيب مرات تاركاً أكثر القمصان متسخة . . ثم أكلنا ونمنا ، وأنا أقول لنفسى : إن النوم هو أحسن وسيلة للهروب من هذا العالم . . وقبل أن أغمض عينى ، سمعت « عباس » يهمهم باسم أمينة .

* * *

دق الجرس فخف عباس ليفتح . . السجادة الداكنة تزينت بدائرة « الشلت » وجو الحجرة ضاق بسحائب الدخان ، والشاب البارز العظام يسعل .

جاءنا صوت عباس يهلل عند الباب :

- هلت ليالى القمر . . لو كنت أعرف موعد وصولك لفرشت لك سجاداً على طول الطريق !

وسمعنا ضحكة ناعمة ، ومالبثت أن دخلت علينا حسناء فى الخامسة

والعشرين ، عليها رداء أزرق فاتح ، ينهمر شلال من الشعر البنى على جسدها الملفوف !

قاموا لها باحترام . . صافحوها فى وقار . . أشاروا إلى دائرة « الشلت » وطلبوا منها التفضل بالجلوس . . حدقت فى وجهى بخوف فى البداية ثم تمّ التعارف . . ذهبت بعدها إلى حجرة مدحت وعادت ترتدى إحدى مناماته المشجرة . . بدت المنامة واسعة عليها ، لكنها أعطت جمالها طابعاً خاصًّا . . أعطوها انتباههم وتزحزحوا جميعا يفسحون لها مكاناً ، لكنها جلست بجوار مدحت الذى كان أقلهم احتفاءً بها . . لم تشرب معهم . . فقط كانت تعلق أحياناً على أحاديثهم بكلمات سريعة فيها ذكاء .

عندما بدأت نكات كمال شاهين الفجة ضقت بالجلسة وقمت . . دخلت حجرتى فجاء عباس ورائى :

– من غير المعقول أن نكون نحن (سعداء) وأنت وحدك تحمل الدنيا على رأسك ! رجلى على رجلك .

حاولت أن أقنعه بأننى غير راغب فى الجلسة ، فلم يقتنع . . لم أقاوم طويلاً كانت لى رغبة فى تأمل الفتاة . . وسألته هامساً :

– من هذه ؟

– ناهد .

وقرب فمه من أذنى – برغم أننا وحدنا – وقال :

– متزوجة . . لكنها تحب مدحت .

ارتعت . . كيف هى متزوجة وموجودة هنا فى مثل هذا الوقت ؟ . . قال عباس :

– زوجها الموظف يتغيب كثيرا بحكم عمله . . وهى تسكن فى الشارع نفسه . . هى ومدحت بينهما قصة حب منذ أن كانت مخطوبة . هيا بنا إلى مجلس الإخوان .

عدنا إلى الجلسة من جديد . . قررت بينى وبين نفسى أن أبيع الأثاث فى الصباح وأعود إلى الفندق . . لاحظت أن ناهد تتميز بغمازتين بديعتين ترغمان البصر على الاتجاه إليهما مهما قاوم . . حينما دارت الجوزة ، وأوغل الليل ، ورق النسيم ، وتراقصت غمازات ناهد ، وتحول لون الصوان أمامى من البنى إلى البنفسجى – بدت لى الدنيا بهيجة ، فقررت أن أكتب رسالة إلى سعاد ، أصف فيها سعادتى ، وأخبرها بأنها لاتهمنى فى شىء ! لأننى عثرت على مفاتيح السعادة ، فى المكان الذى سأقيم فيه طول عمرى .

لكن ، فجأة ، خيل لى أن كارثة ما قد حلت . . أناس يقفون فى الحجرة ، يتكلمون بصوت عال . . كلهم تخرج عنهم أصوات عالية ولا أحد يسمع . . وفجأة أيضاً هدأ كل شىء وضعت يدى حول رأسى لأتبين حقيقة ما حدث ، وبعد جهد عرفت أن « الإخوان » قد رحلوا ، وقام عباس ، وتمدد فوق سريره ، وقال لى ضاحكاً :

– مساء الخير يا أبو على

ثم أشار إلى حجرتى وطلب منى أن أذهب لأنام . . لم أفهم ما قاله فى البداية . . عرفت أنه يطلب منى أن أذهب عندما أطلق ضحكة هازئة عالية .

ولما دخلت الطرقة الموصلة إلى حجرتى ، شعرت بالخوف . . غارقة فى هدوء مفزع . . ظلال تنعكس عليها من مصباح الصالة السهارى . . جو أسطورى تنقصه الأشباح . . بدت لى المسافة إلى حجرتى طويلة وبلا نهاية . . فتح باب

الحمام فجأة ففزعت . . خرجت منه ناهد ملفوفة فى بشكير . . شعرها المبتل يلمع ، وغمازتاها تعلنان عن ابتسامتها ، ورائحتها الأنثوية تملأ خياشيمى . . قررت أن أعترض طريقها ، لكننى أفسحت لها الطريق . . سمعت باب مدحت يغلق وراءها !

* * *

الشقة غارقة فى الضوء ، والساعة بلغت العاشرة صباحاً . . أصوات الشارع تصلنى فى وهن ، والذهاب إلى العمل من المستحيلات . . أعتقد أن محاولات جرت لإيقاظى . . عباس أجلسنى على السرير ، لكننى قاومته . . الدش البارد يستطيع أن يعيد إليك وعيك . . فوق المائدة زجاجة لبن وثلاث بيضات . . تجهيزها لن يستغرق وقتاً على أى حال . . طعم البيض المقلى ، نصف الناضج أروع من رائحة ناهد . . من الذى يدق الباب الآن ؟

أمامى فتاة تميل إلى الطول . . تقاطيع وجهها توحى براحة البال . عينان بنيتان ضاحكتان ، يتغير لونهما مع تغير الضوء . . أسبلت عينيها فهالنى طول الأهداب !

– أى خدمة ؟

– أنا الشغالة .

لعلها تمزح . . من غير المعقول أن تنقلب الموازين إلى هذا الحد . إن كانت هذه شغالة فثمة خلل فى نظام الكون . . لكن أمارات الجد على وجهها . . مازلت مخدراً منذ ليلة الأمس ، والأفضل أن تفسح لها الطريق . . انظر إلى فستانها البسيط لتعرف أنها شغالة فعلاً . . لكن – ياإله الكون – الفستان كأنه صنع من أجلها بأيد جاءت من وراء الطبيعة . . فى الثامنة عشرة تقريباً . . بياضها

مشرب بحمرة ، وربما حمرتها مشربة بسمرة . . أنت لست مخدراً . . ثمة خلل فى نظام الكون . . وجهها يتودد إلى الناظر إليه ، دون أن تريد هى ذلك .

طفل فى السابعة وطفل أصغر منه قليلاً يدخلان وراءها . . شعر البنت متهدل على جانبى وجهها . . كالقطة الصغيرة عندما تثنى إحدى أذنيها وتميل برأسها وتنظر إلى أسفل . . الطفل يشبهها . . جلبابه أبيض عليه كتابة حمراء بدائية تفيد أنه ختن حديثاً . . مد سبابته نحو زجاجة اللبن ورفع رأسه إليها :

– أفطر .

شدته من يده بعنف ، حتى ارتطم وجهه بفخذها

– اخرس .

ضايقتنى قسوتها . . أفرغت ما تبقى فى الزجاجة فى كوبين وناولتهما الطفلين . . لم يمد أحدهما يده إلى الأكواب . . رفعا رأسيهما الصغيرين ، ووجها إليها نظرات خائفة :

– خذ يا شاطر . . خذى ياحلوة .

عادت النظرات القططية من رحلتها ، وتسلطت على الأكواب . . لكن الأيدى ظلت على خوفها .

– قولى لهما يأخذا .

ابتسامة لم أر مثلها فى مرارتها ، صاحبت أمرها لهما أن يشربا . . ولم تكن ثمة مقاعد فى الصالة لأجلس الطفلين . . عملت لكل منهما شطيرة صغيرة من البيض وأعطيتهما . . وقفا يأكلان بسرعة أدهشتنى . . كأنهما ديكان صغيران عاريان من الريش ، حبسا ثلاثة أيام بلا طعام ، وألقى إليهما الحب فجأة !

– متشكرين .

سمعت صوت الأمواج وشممت فى نبراتها رائحة البحر ، فهذه لاشك لهجة الأنفوشى :

– من إسكندرية ؟

– الوايلى .

نبرات صوتها تعلن عن عدم رغبتها فى الحديث . . قادت الطفلين وخطت إلى الداخل . . لمحت حجرتى عامرة فتوقفت :

– حضرتك سكنت هنا ؟

– نعم .

لم تقل شيئاً . . خطت إلى المطبخ ، بالابتسامة التى لم أر مثلها فى مرارتها . . حين سألتها عن اسمها قالت فى اقتضاب : أمينة .

وقلت لنفسى : ربما أنت تحلم أو ربما ما زلت واقعا تحت تأثير ليلة أمس !

* * *



الشمس لم تطلع بعد ، وشمسيتى هى الوحيدة على الشاطئ . . كازينو كليوباترا الحمامات إلى اليسار ، وإلى اليمين تبدأ الكبائن المتشابهة بأبوابها الصفراء الباهتة . . خفت أن أنفجر غيظاً فى البيت ، فلجأت إلى الشاطئ . . سعاد عُينت فى وظيفة مرافق خاص للسيد حاتم ! والقرب من البحر يعطى إحساساً بسهولة الانتحار . . يقال : إن المعيشة فى دول الشمال أفضل منها فى البلاد الأخرى . . الزواج من امرأة نصف عمر تتفتح بعده أبواب السعادة ! . السيد شريف بنفسه قال : هذا ليلة أمس ! عم سعاد العظيم ، والمثل الأعلى فى أسرتها هو الذى أكد هذا ليلة أمس ! جلسنا فى الصالة أمام التليفزيون ننتظر سعاد ، وروى لنا قصة صديقه الذى ورث عن أبيه عشرين ألف جنيه . . كان سعيداً ومبتهجاً ، لأن صديقه أتى هذا الأمر الخارق ! رنة فخر تغلف صوته كأنه هو الذى ورث ! السيد شريف يعمل مديراً لأحد فروع شركاتنا ذات التعامل الواسع مع الجماهير.

قبل التأميم كان يجلس فى مقعده رجل إيطالى . . قفز هو بسرعة لذكائه النادر كما تقول والدة سعاد ، واحتل المقعد . . لم تكن الأمور . قد اتضحت بعد فى الشركة لأصحابها الجدد . . أدارها السيد شريف وأصدقاؤه الذين « يسهرون » معه . . أصحاب الشركة الجدد هم السيد شريف و« إخوانه » .

بعد التأميم بسنتين وضح التطور فى الشركة . . التحسينات العصرية التى

أدخلت عليها عادت على العاملين فيها بالخير ، فبنى السيد شريف عمارته الأولى فى « ميامى » . . العمارة (الثانية) كانت فى نهاية السنة الثالثة . . فى السنة الرابعة أوقف السيد شريف عن عمله وقدم إلى المحاكمة . . ومهما توارى الحق فلابد له أن يظهر يابنى ! ومادمت لا تؤذى أحداً فلابد أن يفتح الله لك طريقا ولو فى المحيط نفسه ! ظهرت براءة السيد شريف وعاد إلى عمله معززاً مكرماً ؛ ذلك لأن سمعة أحد رجال البلد المهمين يجب ألا تشوه مادام كل شيء مسجلاً باسم زوجته !

والدة سعاد من أشد المعجبين بالسيد شريف . . تلتفت إلى زوجها الموظف الصغير المسكين ، وتحيطه علما بأن كل الناس ركبت السيارات الفاخرة ، وهى الوحيدة التى مال بختها !

الشمسيات غطت الرمال دون أن أدرى . . بالقرب منى شمسية حمراء جديدة . . تحتها رجل وامرأة وطفلتهما . . البنت الصغيرة شقراء ملونة العينين كأنها سويدية أو نرويجية لولا سمرة الشرق . . عليها لباس بحر أصفر يكشف عن ضلوعها . . تبنى لنفسها أهراما صغيرة من الرمال . . صفارة طويلة من عامل الإنقاذ ، لبضعة شبان توغلوا فى البحر . . موجة ظالمة اكتسحت أهرام الصغيرة . . انخرطت فى البكاء ، فهب أبوها يساعدها . . حركة عن يمينى ليست غريبة . . صوت أقدام تطحن الرمال . . ساقان جميلتان تقتحمان شمسيتى . . جسد صاحبتها محجوب خلف الشمسية ، والقدمان تصطدمان ومقعد البحر الصغير . . أنا أعرف هذه الساق . . هببت واقفاً فيما يشبه الفزع .

— سعاد ؟

جذعها منحن لتلافى حواف الشمسيات المتزاحمة . . غطاء الرأس أبيض ،

والثوب القديم واسع عليها . . جلسنا وأنا ممسك بيديها الاثنتين . . هى تتكلم وأنا أحدق فيها دون نطق !

– دخت عليك . . الشمسيات كثيرة ومتلاصقة ومتشابهة ودخت عليك ماما لم تقل لى إنك جئت من مصر أمس . . قالت لى : خفت أخبرك لتأخر الوقت والصباح رباح . . عملت معها مشكلة طبعاً . . كنت خائفة أن تكون نزلت البحر ولاأجدك فى هذا الزحام . . حمداً لله على السلامة ياحسن . . سألت عنك بالبيت ، ووالدتك فتحت لى الباب ووقفت تحدق فى وجهى عشر دقائق قبل أن تدعونى للدخول وكأنها لا تصدق أننى أنا . . نادية أختى جاءت معى وتبحث عنك الآن فى الجانب الآخر من الكازينو ، وربما تاهت الآن . . مالك تحملق فى وجهى دون نطق كأن سهم الله نزل عليك ؟

النظر إلى وجهها المسمسم اللطيف ، وتأمل حواف شعرها الأسود أسفل غطاء الرأس ، والإحساس بدفء أصابعها الطويلة السرحة – أبلغ من أى حديث !

خلعت حذاءها وأفرغت منه الرمال ، واستندت على عمود الشمسية . . جاء بائع الكوكاكولا فاشترينا زجاجتين . . أدارت الزجاجة بين يديها وتأملتها :

– عمى شريف كان عندنا الليلة . . كان يشكر فيك طول الوقت .

طارت نشوتى فى الحال مادام السيد شريف يمدحنى فالمقصود هو العكس .

– أخبرته أن « حاتم » تقدم لخطبتى فتحمس له . . قال لى : حاتم يناسبك جداً !

الشمسيات اقتربت وابتعدت وأهرام الصغيرة ارتفعت وانخفضت ، ودار البحر فأصبح فى الجنوب ، وتحول الشاطئ إلى الشمال . . أعتقد أننى يجب أن

أعرف سعاد من جديد . . متقلبة المزاج حقًّا ، لكن هذا وحده لايكفى معرفَتها ! لمعة خفيفة من زاوية عينها فضحتّها . . أرسلتّها لترى أثركلامها فوضح عبثها . . أمالت رأسها إلى الجانب الأيسر وقالت فى دلال مصطنع :

- شاب ممتاز .. اتفقنا على كل شىء .

برغم إحساسى بمزاحك وبرغم حبى لدلالك المصطنع فإننى خائف . . الله وحده يعلم أننى خائف .

- بابا شريف قال لى : إنك شاب ممتاز حقًّا ، لكن مسئوليات الزواج صعبة عليك ! أعطتنى نصف ظهرها ، وهى تلصق ذقنها على كتفها وتنظر لى مبتسمة وتهم بقول شىء ؛ وهى بهذا الوضع رأت جارتنا الصغيرة تقيم أهرامها الجديدة على الرمال . . نسيت ماكانت تنوى قوله وصاحت بفرح طفولى :

- انظر ! بنتْ مثل السكر .

قربت وجهها من وجهى وقالت فرحة :

- ليتنا نخلف بنتاً فى حلاوتها .

وفى تلقائية محببة - ذهبت إلى الطفلة وجاءت بها . طاوعتها الصغيرة مسرورة ، وأبوها وأمها يبتسمان . . جلست وضمتها إليها وهى تسند ذقنها على صدرها :

- اسمك يا سكر ؟

- عبير .

التفتت إلى فى بهجة كأنها اكتشفت شيئاً غير عادى :

- خلاص . . نسميها عبير .

لمحت أرجل بنطلون بائع الكوكاكولا خلال الشمسيات ، فأسرعت بدفن

الزجاجتين فى الرمال ، ولمعت الشقاوة فى عينيها . . وقف الرجل ينظر إلينا فى شك ، ويدور بنظره على الشمسيات المجاورة . . انشغلت هى فى مداعبة الصغيرة وتجاهلته تماماً . . تشجع الرجل وتساءل :

– عندكم زجاجتان ؟

رفعت إليه رأسها اللطيف بخوذته البيضاء .

– نعم ؟

– أظن أنا أحضرت زجاجتين ؟

ضخمت صوتها تبالغ فى تقليد لهجة حوارى المدينة .

– (تشتغلوا علينا ياعم) . . (من الصبح قاعدين فى أمان الله وفى الآخر تقولوا لنا ماعرفش إيه)

ضحك الرّجل فى اطمئنان . . طريقتها فى مط الكلمات لم تكن متقنة كما يجب . .

قال لها باللهجة نفسها :

– طيب اطلعى منها والحقينا بالفوارغ ربنا يخلى لك الكابتن ويرزقكم كل يوم « جوزين جنيهات »

هبت فجأة وخلعت ثوبها . . وأظهر لباس البحر الداكن الحمرة جسدها دقيق التكوين . . دست الثوب فى سقف الشمسية وأوعزت للعائلة المجاورة بحراسته . . قدمت ساقها اليمنى ، وثنت ركبتها ، ومالت بجذعها إلى الأمام قليلاً تستعد للعدو :

– أنت صدقت أننا سنخلف بنتاً نسميها عبير؟

– طبعاً . .

– طبعاً ؟ . . معقول أضيع مستقبلى مع ولد هايف مثلك !

وتسابقنا . . أينا يصل البراميل قبل الآخر؟

* * *

٦

خمسمائة جنيه وعشرة كانت فى جيبى . . سيارة الأجرة تنهب بى الطريق الزراعى ، والحقول الفسيحة حولى توحى بالأمان . . ثمن حصتى فى بيتنا الجديد كافية تماماً لزيجة نصف متواضعة . . الشقة فى بيتنا القديم وعندما نفكر فى السكنى بالقاهرة قد يأتى الله بالفرج . . دخلى ودخلها كافيان للضروريات . . دروسها الخصوصية لكمالياتها . . اتفقنا أن أجتهد فى البحث عن عمل إضافى لكمالياتى . . الأيام القادمة ستكون صعبة ورائعة فى وقت واحد ! بيت تعيش سعاد بين جدرانه لاتتوقف أمامه صعاب !

فى استراحة طنطا أصررت على أن أدفع ثمن مشروبات كل الجماعة التى تركب معى سيارة الأجرة ! انتهزت الفرصة ورويت لهم قصة حبى . . بين الحين والحين أدخل يدى فى الحقيبة الصغيرة وأتحسس النقود . . هذه أول مرة فى حياتى أحمل فيها مثل هذا المبلغ أنا فى حاجة إلى أناس أروى لهم كل شىء عن يومى الأخير بالإسكندرية .

دخلت القاهرة بخطوات راقصة . . فى داخلى يتردد لحن : «ياحبيبتى يامصر» . ستتغلب على كل مشاكلنا وننتصر . . سنملأ بلادنا بالمصانع ، وسنزرع كل الصحارى العربية ، بما فيها الصحراء الكبرى . . حينما دخلت الشقة وجدت «أمينة» والطفلين . . رقص قلبى لمرأى الطفلين . . تذكرت «عبير» جارة الشاطئ وناديت الصغيرين . . جلست على المقعد لأنه يواجه

المطبخ . وملت بجذعى إلى الأمام أداعبها :

– أخواتك يا أمينة ؟

– أولاد أختى .

ردها مقتضب يوحى بعدم الرغبة فى الكلام . . ابتسامة مغتصبة مشحونة بالمرارة . . انتهت من الغسيل وتجهيز الغداء . . من مكانى لا أرى غير جزء من ظهرها . . تمنيت لو جاء عباس أو مدحت لأروى لهما يومى الأخير الرائع . . تنبهت إلى الطفل يمسك بيدى ويروى لى حكاية طويلة لم أفهم منها شيئاً . . ضحكت من منظر أسنانه المخلعة . . الصف الأعلى ليس به غير سنتين متجاورتين . . تحتهما تماما فى الصف الأسفل ، مكان خال لسنتين مخلوعتين . . كأنه تعمد هذا ليدخلها مكانهما .

خرجت أمينة من المطبخ ودخلت الطرقة . . دهشت . . هذا ليس وجه شغالة . . هذه الرشاقة لاتليق إلا بممثلة من الصف الأول تقوم بدور خادمة . . عباس معذور إذن . . هذا جمال صاعق . . لو أن هذه الفتاة ارتدت ثوباً فاخراً من ثياب السهرة ودخلت إحدى حفلات علية القوم ، لانحنت لها جباه تتحكم فى عالمنا ! عباس معذور إذن . . لكن ألنيس من الواجب أن أفعل شيئاً من أجلها ؟ . . أليس من واجبى أن أحاول حمايتها من عبث عباس جنسىّ المشاعر والأحاسيس ؟ . . أعتقد أنها ليست فى حاجة إلى هذا . . الدليل أن نصف مذكرات عباس تشكوها ! هى قادرة على حماية نفسها . . لكن . .

خرجت من المطبخ وأسندت يدها على بابه . عيناها أضاعتا منى نصف الانتباه . . قالت فى حياء :

– أقول لحضرتك على حاجة !

- خير .

- نفقات البيت تكون معك .

- والسبب ؟

- مدحت لايعطيني حتى كاملاً فى نهاية الشهر .

رفعت رأسى إلى صورة مدحت فى الصالة :

- حاضر . . ابتداء من اليوم اعتبرينى المسئول .

وظهرت ابتسامتها المشحونة بالمرارة . .

* * *

انعقدت الجلسة عند مدخل الشرفة . . الطبق الكبير غاص بالرماد ، تتوهج عليه الجمرات والحجارة البنية فى صف طويل عامرة بالمعسل . . قررت ألا أشاركهم ولو انطبقت السماء على الأرض . أريد أن أحتفظ بعقلى كاملاً أسترجع يومى الأخير فى الإسكندرية .

فكرت فى أن أفاتح مدحت فيما قالته أمينة ، لكنى أجلت ذلك إلى الغد . . عرفت أن اثنين من « الإخوان » جامعيان يعملان فى غير تخصصاتهما . . الثالث ثانوية صناعية ويعمل - بعد الظهر - مع كمال شاهين . . الأخير من حملة السادسة الابتدائية ، ويفخر بأنه نسى القراءة والكتابة باستثناء الأرقام . ملك الجلسة غير المتوج . . نصف نفقاتها على حسابه . . فى حضرته ممنوع أى حديث لايستطيع فهمه أو المشاركة فيه . . عليهم جميعاً أن يضحكوا للنكات الفجة مادام هو يضحك لها . . هو الوحيد المتزوج فى الجلسة كلها . . الشاب البارز العظام - وكان خريج تجارة - قال بعد الدورة الثالثة :

– عشرة آلاف مليون جنيه نفقات المعركة ، من يوم ٥ يونيو لغاية نهاية حرب أكتوبر !

قال القصير البدين يقرب الأمر إلى ذهن كمال شاهين :

– يعنى عشرة آلاف متر ذهب مكعب يا أبو كمال !

كانت عينا كمال شاهين جاحظتين وهو يطبق بشفتيه على غابة الجوزة ويشد نفساً طويلاً بقوة . . أغمض عينيه والدخان يتسرب من أنفه ببطء شديد . لما انتهى من ذلك هز رأسه وقال بلا اهتمام :

– عال .

– ويقال إن عددنا سيصل خلال العشرين سنة القادمة إلى سبعين مليوناً .

قام عباس فجأة وشد إليه ملاءة سرير ، ووضعها على كتفيه ، وأسدل طرفها على ظهره كالعباءة . . جلس متربعاً وهو يقول فى مرح :

– لذلك قررت الإضراب عن الزواج للتخفيف عن البلد !

موجة عالية من التصفيق الحاد والضحكات العالية . . تهليل مبالغ فيه كأنهم يؤيدونه بحرارة على موقفه . . لكن كمال شاهين التفت إلى عباس وقال له فى ضيق :

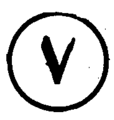
– هات لنا الفاكهة .

قبل أن يتحامل عباس على نفسه ويقف دق جرس الباب . . ذهب ليفتح وهو يلف الملاءة حول جنبيه . . بعد قليل عاد يرحب بامرأة تقترب من الثلاثين . . مظهرها يوحى بأنها ربة بيت . . جمال هادئ ، وعينان وديعتان وإن كانتا تدعيان الجرأة . . استقبلوها بتهليل عظيم . . حدقت فى وجهى قليلاً وتم التعارف . . الزميلة سميرة إبراهيم . . موظفة بمصلحة البريد . . أسندت يدها

على كتف مدحت ومالت بجذعها تستقبل الجوزة الممدودة . . اعتدلت وفتحت فاها عن آخره ، ونفثت موجة كثيفة من الدخان . . صاحوا يطلبون منها أن تدركهم بفنها جذبت ملاءة السرير من عباس فدار حول نفسه . . تحزمت بها ورقصت وهم يضبطون لها الإيقاع على أكفهم ويضجون .

جلست تحت موجة عالية من التصفيق . . التصقت بعباس وأسندت رأسها على كتفه . . طوقها بذراعه وطالب بخمسة أحجار متتابعة لتحية سميرة ! قلت لنفسى فى الصباح تبيع الأثاث وتعود إلى الفندق . . دق جرس الباب وقام عباس . . بعد ثوان وقفت ناهد أمام باب الحجرة . . حين رأيت الغمازتين الحلوتين عدلت عن فكرة بيع الأثاث !

* * *



رفع عباس سماعة التليفون من مكتبه المواجه لمكتبى وقال لى فى لهفة :

- إسكندرية تطلبك .

تعثرت فى أحد المقاعد وأنا أقوم مسرعاً :

- آلو . . أنا شريف ياحسن .

- أهلا شريف بك .

- أريدك لأمر هام .

- خير ياشريف بك ؟

- كل خير . . حاول أن تحضر اليوم . . أو غداً على الأكثر .

- ممكن آخذ فكرة ؟

- المسألة بسيطة ولاتشغل بالك . . فقط الأمر يتوقف على حضورك .

- أعطنى ولو فكرة بسيطة .

- عندما نلتقى . . قل لى متى تحضر؟

- الآن .

حصلت على إجازة ليومين ، وسارعت إلى الشقة وسحبت من المبلغ عشرة جنيهات ، وللحظة فكرت فى أن أضع المبلغ كله فى جيبى لكننى خشيت أن يضيع منى فى الطريق . . أخيراً وضعته (بظرفه) فى مكانه من الصوان ، بعد أن أغلقته ووضعت بضعة قمصان فى حقيبة صغيرة ونزلت .

من محطة سيدى جابر اتصلت بالأستاذ شريف تليفونيًا . . هلل لى وقال : إنه ينتظرنى بالبيت .

ما إن جلست حتى لاحظت حفاوته المبالغ فيها . . جاءت لنا ابنته بعصير مانجو ، ثم انسحبت هى وأمها وأخليا لنا البيت بحجة زيارة عائلة صديقة .

تنحنح طويلاً قبل أن يقول لى :

– أنت إنسان عاقل جدًا يا حسن .

– بعض من فضلك .

– الحقيقة ، يعجبنى اتزانك ، وتفهمك للأمور بطريقة واقعية .

لم أرد . كنت مشغولاً بما بعد هذا التمهيد . . واستطرد :

– من مدة طويلة وأنا أحاول مفاتحتك فى هذا الموضوع . . لكن الأمر لم يكن مهيأً كما يجب .

كنت أحدق فى وجهه أحاول أن أستشف مايريد قوله ، ولكن دون جدوى . . فقط شعور بالانقباض ينتابنى .

– أنت طبعاً تحب سعاد . . أليس كذلك ؟

– بلى .

– والمفروض فى المحب أن يتمنى لحبيبه الخير . . هل هذا صحيح ؟

– صحيح .

– بصراحة وبدون جرح لشعورك ، سعاد وحاتم أصبحا يميلان لبعض ! ولذلك كلفت أنا إخطارك . . ووافقت على أساس معرفتى بأنك ستفهم الأمر كعهدنا بك . ولم أفهم ما يقوله فى البداية . . مضت لحظات لا أعرف مقدارها وأنا أحدق فيه فيما يشبه البلاهة . . أخيراً سألته :

– من كلفك ؟

– سعاد نفسها .

– هل يمكن أن أقابلها ؟

انشغل فى التحديق فى أصابعه المشعرة الممتلئة دون أن ينطق . . وحينما رفع بصره لاحظت أن لغده المترهل بدأ يشكل ذقنا آخر له . . وقال لى وهو يبتسم :

– المقابلة غير ممكنة . . لأنها فى غير مصلحتك ومصلحتها !

– أصر على أن نلتقى .

دخل إحدى الحجرات وعاد يحمل ظرفا أزرق ، مده لى ففتحته وقرأت خط سعاد :

« عزيزى الأستاذ حسن . . يؤسفنى أن أقول لك : إننى بدأت أحس بفتور من جانبك فى الفترة الأخيرة . . والحقيقة أن الفتور مشترك وليس من جانب واحد ! وكنت أود أن أخبرك لكن الظروف لم تكن تسمح . . والحقيقة : أنت شاب ممتاز فعلاً وأى واحدة تتمناك . . وأرجو أن أشهد حفلة زفافك على من اختارها قلبك فى القريب العاجل ؟

أختك : سعاد »

برغم أن الخط خط سعاد فإننى لم أصدق هذا إلا فى اليوم الثانى ؛ لذلك قضيت فى اليوم الثانى ليلة معربدة عند امرأة فى الإبراهيمية عرفنى بها أحد الأصدقاء القدامى . . وحينما عرفت أمى فى يومى الأخير ما داربينى وبين السيد شريف ثارت ثورة جامحة . . وتحدثت عن أصولهم وأنسابهم بأشياء غريبة سمعتها لأول مرة ! ودهشت على موافقتها الأولى على مصاهرتهم على حين أنهم كما

وصفتهم ! وقالت فى ثورة غضبها إنها ستزوجنى سيدتها وسيدة أسرتها ! وترجمت قولها عمليًا ، واتصلت بأسرة كانت تجاورنا يوماً ، ودعتها لزيارتنا . . ولم تمض ساعة حتى كانت الأسرة الصديقة تدخل بيتنا تتقدمها كبرى بناتها (لطيفة) بقوامها الأهيف لولا طول أنفها !

لم أستطع الجلوس معهم . . استأذنت فى الخروج برغم احتجاج أمى وذهبت لزيارة صديقى القديم « هانى » بمنطقة محرم بك . . رويت له ماحدث وتلقيت مواساته ، ثم ضقت بكل شىء وقررت السفر .

حينما وصلت القاهرة اكتشفت أننى نسيت سلسلة مفاتيحى بالإسكندرية ، فاضطررت لكسر باب الصوان .

* * *

قضيت أسبوعاً كاملاً أنام النهار ، وأتسكع فى شوارع القاهرة طوال الليل . . أحياناً أدخل إحدى الحانات وأدفع ثمن الشراب وأخرج دون أن أتناوله ! وأحياناً كنت أسرف فى الشراب حتى أفقد توازنى . . ذهب مدحت إلى رئيسى فى العمل – وكان قريبه – واعتذر له عن تغيبى فقبل عذره . . فى اليوم الأخير من الأسبوع ظللت أتسكع حتى السابعة صباحاً . . حينما فتحت باب الشقة رأيت منظراً غريباً . . عباس وأمينة يقفان فى الصالة . : هو يدور حول نفسه فى حرج ، وهى مقطبة الجبين ، والطفلان يبكيان . . فى سرعة عجيبة تناول حقيبته وخرج . . لم أهتم . . كنت فى حاجة إلى النوم ، وغير مستعد لأى شىء . . فكرت للحظة أن أرتدى منامتى ، لكننى قررت أن أنام كما أنا . . فوجئت بأمينة تطرق الباب من الخارج . . كان الباب مفتوحاً فصحت فى جفاء .

– نعم ؟

وقفت فى مدخل الحجرة وقالت فى انفعال :

– أقول لحضرتك على حاجة !

– خير .

– نفقات البيت تكون مع حضرتك .

– قلت هذا من قبل . .

دهشت لصياحى ونبراتى المغيظة . . قالت وهى تنسحب :

– قصدى أفهمك على حاجة ثانية .

صحت من مكانى لأسمعها صوتى .

– قولى عن الحاجة الثانية .

لم ترد . . ظللت لبرهة قصيرة أنتظر قدومها فلم تأت . . دخل على الطفلان ، فلوحت لهما بيدى فى ضيق ، فتقهقرا مذعورين . جلست لبرهة قصيرة أفكر هل أرقد أو أعاود الخروج ؟ ثم ما حكاية هذه البنت ؟ . . المصانع الآن تستوعب كل البنات ، فلماذا لا تلتحق بأحد المصانع ؟ . . هناك حلقة مفقودة مطلوب منى معرفتها ! لو كان مدحت وعباس يجزلان لها العطاء لكان وجودها هنا معقولاً . . لكنها – باعترافها – تعانى منهما فلماذا هى هنا ؟ . . أليس من المعقول أن تكون ممن يستغللن جمالهن وتتظاهر بعكس ذلك لعدم استلطافها لعباس مثلاً ؟ . . النساء هكذا . . يتمنعن وهن الراغبات ، وإلا فمن يصدق أن يصدر مثل هذا التصرف عن سعاد ؟ ليس للمرأة إلا السوط والفراش ! خرجت من الحجرة ودخلت المطبخ . . وضعت يدى على كتفها وقلت لها متصنعاً الحنان :

– قولى عن الحاجة .

تماوج كتفها كما يتماوج ظهر القطة ، فانزلقت يدى ، استدارت ولاذت بالجدار وهى تحدق فى بعينين مذعورتين .

– كنت أظن أنك ستحمينى .

– أحميك ؟

– ظننتك مختلفاً عنهما .

خجلت . . انسحبت فى هدوء ، وأغلقت على باب حجرتى ، ومالبثت أن استغرقت فى النوم بكامل ملابسى .

* * *

– حجرتك لطيفة جداً . . قررت أنام فيها الليلة .

قالت لى ذلك سميرة إبراهيم ، صديقة عباس ، والجميع يدورون حول الجوزة ، والحجرة غارقة فى الضباب برغم باب الشرفة المفتوح .

أحسست أن (مدحت وعباس) هما اللذان أشارا على سميرة أن تقول ذلك . . فطوال السهرة وهى لاتفارقنى ، على حين جلست ناهد بجوار مدحت بعد أن ارتدت إحدى مناماته .

لم أقل لمدحت أو لعباس ما حدث لى فى سفرى الأخير للإسكندرية . . لكنهما أحسا من تصرفاتى خلال الأسبوع الماضى بأن كارثة ماحلت بى واحترما احتفاظى بسرى لنفسى .

كان كمال شاهين يروى نكتة من نكاته الفجة عندما دق جرس الباب وقام عباس ليفتح . . لا أذكر تماماً ما حدث بعد قيام عباس . . كل ما أذكره صوت خطوات مسرعة فى الطرقة ، وعباس يلح على أصحابها ماذا يريدون ؟ ثم

خمسة رجال يقتحمون علينا الحجرة .

ناهد تهب واقفة وتشهق شهقة عظيمة ، تتهاوى بعدها على السجادة مغمى عليها . . أحد الرجال – وكان فوق الخمسين – عليه سترة بنية ، يصفها بأقذع الألفاظ ثم يهجم على مدحت ويطبق بيديه على عنقه . . الحجرة يدور فيها قتال غريب . . ينقلب الكومدينو . . تتبعثر جمرات النار على السجاد . . أكواب شاى تتحطم . . ماء الجوزة يجرى على السجاد . . يهدأ كل شىء فجأة . . يذهب الرجل ذو السترة البنية ومعه اثنان . . يبقى معنا اثنان ، أحدهما يجثو على ركبتيه وينهمك فى إفاقة ناهد . . سميرة تبكى فى هستيرية ، وعباس يقف فى ركن الحجرة يتحسس فكه الذى نالته لكمة قوية .

* * *

٨

لم نجد طعاماً فى الشقة ، عندما دخلنا ، عباس وأنا . . الصالة غارقة فى بحر من الفوضى ، وفوق سرير عباس كومة من قمصاننا المتسخة . . دار عباس حول نفسه وقال :

– شىء متناقض . . عدم تنظيف الصالة يدل على أن أمينة لم تأت اليوم ، وكومة القمصان تدل على أنها جاءت ، واستعدت للغسيل .

– ربما جاءت وأرسل أحدهم فى استدعائها .

خرج عباس وعاد لنا بطعام سريع . . ورحنا نثرثر على الطعام حول طلاق ناهد من زوجها وسفر مدحت إلى القرية لإحضار نقود . وعرفت من عباس أن شقيق ناهد – وهو الذى انهمك فى إفاقتها – رجاهم أن يظل الأمر سرًّا إلى أن يجد سكناً جديداً خارج منطقة « حدائق القبة » . . وقال عباس فى احتجاج :

– تصور . . مدحت يريد الزواج من ناهد ؟

– وماله ؟

– ماله ؟ . . رجل فى مثل مركزه ، يتزوج واحدة مثلها ؟

– أتعنى أنها امرأة سيئة ؟

– طبعاً . . واحدة ترضى لنفسها أن تقيم مع رجل أعزب ! نهايته .

كنت فى حالة نفسية مستعد معها لأن أقاتل طواحين الهواء . . قلت فى غيظ :

– ولماذا رضى هو لنفسه وهو صاحب المركز كما تقول – أن تقيم معه ؟
– هو رجل . .
– أتعنى أنه يحق للرجل مالا يحق للمرأة ؟
لوح بيده وقام ليغسل يديه ثم عاد ليقول :
– عارف . . لولا وجودى هنا ، ما مكثت معنا أمينة يوماً واحداً .
– تعاملها معاملة طيبة .
– ليس هذا القصد. . مدحت لايدفع لها راتبها . . أنا أتكفل بنصيبه ونصيبى فى أكثر الشهور . . اللهم إلا فى الحالات التى أكون أنفقت فيها أكثر مما يجب .
ولما كنت أعرف أن الحالات التى ينفق فيها أكثر مما يجب هى القاعدة – فقد عرفت الآن لماذا هى دائمة العبوس . . وندمت لأننى لم أعتذر لها على خطئى فى حقها منذ بضعة أيام . . وأقنعت نفسى بأن حالتى النفسية ليست على مايرام ، وقررت أن أسترضيها فى أقرب فرصة .
وجلسنا فى حجرته نشرب الشاى ، ثم قال بحماس :
– ليكن فى علمك . . أمينة هذه من عائلة طيبة جدًّا . . إخوتها كلهم موظفون وأبوها رجل محترم .
– ياسلام ؟
– ألا تصدق ؟ ، والله العظيم أمينة من أسرة كريمة . . وهى تعمل فقط كى لا ينفق عليها أبوها أو أحد من إخوتها . . (إنسانة) عزيزة النفس بشكل لاتتصوره . . كانت موظفة ، واتهمت فى قضية سياسية ، ففصلت من عملها . . معك سجائر؟

أشعل سيجارة وقام بفتح صوان ملابسه .

– الله ؟ . . أين زجاجة الكلونيا . . هل أخذتها ؟

– لا .

– زجاجة جديدة اشتريتها ولم أفتحها بعد . . الله ؟ . . أين الكرافتات ؟ . . وأين قماش القمصان الجديدة ؟

ووقف يحدق فى وجهى ببلاهة . . وقمت من فورى وفتحت صوان ملابسى ، فلم أجد ظرف النقود . . درت حول نفسى :

– عباس .

جاء على أثر صيحتى :

– ظرفى أنا أيضاً غير موجود .

– أى ظرف .

– ظرف به حوالى خمسمائة جنيه .

لطم خديه وصرخ بأعلى صوته :

– يومنا قطران ! وأنا قررت أهج من البلد . . لا أحد غير بنت الكلب . . أنا متشكك فيها . . طول عمرى متشكك فيها .

– من ؟

– سميرة إبراهيم .

كنت على استعداد لأن أتهم أى إنسان . . طلبت منه أن يدلنى على مسكنها فوراً . . لكننى سألته :

– هل كانت هنا الليلة الماضية ؟

– لا .

مرت فترة صمت قصيرة كان عباس خلالها يحدق فى وجهى مفتوح الفم . . مصدر دهشته أنه لم يرنى أدهش لهذا السر الذى وصفه بالخطير . . لم يكن يعرف أننى قرأت كراسة مذكراته ، ولم أكن فى حالة نفسية تمكننى من التظاهر بالدهشة .

رمش بعينيه رمشات سريعة قائلاً :

– واضح أنك لا تصدقنى .

لم تكن لى رغبة فى خوض أى حديث يخص الآخرين ، ولم أكن فى حالة تسمح لى بمجاملة أحد ، فلذت بالصمت .

دسّ كفه فى كفى وقال بصوت متهدج :

– وحق العيش والملح . . عزمت فى يوم من الأيام أن أتزوجها .

لم أرد . . تذكرت أن نقودى قد ضاعت ، وأنه ليس بجيبى غير ثلاثة جنيهات والشهر ما زال فى منتصفه ، ولا أقارب لى أو أصدقاء بالقاهرة ، والسفر إلى الإسكندرية الآن معناه تأجيل البحث عن النقود ؛ مما يعنى ضياعها نهائيًّا ، ولا أعتقد أن « عباس » أو مدحت يستطيعان إسعافى بشىء ، فلم أكلف نفسى عناء الرد .

حدق عباس فى وجهى قليلاً ، ثم قام وذهب إلى حجرته . . طالعتنى فى الصالة صورة مدحت بشاربها الصغير ، ورباط عنقها الفاقع ، فتملكتنى رغبة فى تحطيمها ، لكننى وجدت أن الأمر لا يستحق .

عاد عباس يحمل فى يده ورقة شفافة ، فتحها ، وتناول سيجارتين من علبتى ، ومضى يفرغ ما فيهما من دخان . . ثم تنهد طويلاً وقال لى :

– خلّيها على الله .

– أنت أخطأت فى حقى ، وأنا مسامحك . . أما نقودك فسأدفعها لك بالقرش الواحد .

ثرت فيه وبسمة السيد شريف الساخرة تستفزنى . .

– قم من هنا يالص يابن الكلب ! . . ما الذى تملكه يا هلفوت حتى تدفع لى ؟ ! قم حالاً الآن وإلا ضربتك !

* * *

رويت ماحدث لضابط البوليس فى اختصار . . وكان مدحت قد عاد من البلد ، وذهب معنا إلى قسم البوليس واتهم « أمينة » . . عارضه عباس فى البداية ، لكنه وافقه بعد ذلك . . ذكر مدحت اسم « شغالة » أخرى اسمها « هانم » ، قال إنها هى التى جاءت له بأمينة . . جاء الضابط معنا وعاين الشقة . . أشار إلى صوان الملابس قائلاً :

– طبعاً هى التى كسرته .

– لا . . نسيت مفاتيحى فى الإسكندرية ، وكسرته .

عدنا معه إلى قسم البوليس ، فكلف أحد المخبرين إحضارَ أمينة وهانم .

ولولت « هانم » عندما رأتنا نستدعيها من البيت الذى تعمل فيه ، وقالت : إنها تخاف الذهاب الى القسم ، لكنها مستعدة أن تدلنا على بيت أمينة ، فوافقها المخبر الذى قال لنا ما معناه : إنه يملك خطة جهنمية لإحضار النقود .

كان الوقت بعد الظهر بقليل ، والجو حار . . أمام إحدى حارات الوايلى ، ميدان صغير مؤلف من التقاء حارتين على خرابتين متقابلتين . . كشك لبيع السجائر ليس به غير بضع صناديق سجائر ، وعدة بواكى من البسكويت الرخيص ، وعلبة كبيرة بها كمية من الأسبرين ، وأكياس بيضاء كثيرة من

الفحم . . فى داخل الكشك جلست صبية فى العاشرة مهوشة الشعر . . حينما اقتربنا منها وضح لى الشبه بينها وبين أمينة .

مدت هانم سبابتها فى نافذة الكشك ، وحولتها إلى الأرض عن يسار الكشك وقالت بلهجة باكية :

– أختها . . وأمها .

نظرت إلى حيث أشارت سبابتها فرأيت امرأة مفرطة البدانة ترقد على جنبها الأيسر فوق جوال فى ظل الكشك . . عليها رداء أسود مترب ، وتلف رأسها بخمار بنى باهت ويدها تحت رأسها .

خرجت الصبية من الكشك ، وركعت على ركبتيها على الجوال وهزت الجسد الراقد :

– ماما . . ماما .

مد المخبر يده إلى علبة البسكويت ، داخل الكشك ، فتناول « باكو » وفتحه ومضى يقطع به الوقت !

فتحت المرأة عينيها فرأتنا . . اعتدلت جالسة وقد وضعت إحدى ساقيها تحت جسدها . . مضت تحدق فينا وشفتها السفلى ترتعش . . أشارت الصبية إلينا وقالت لها :

– سألونى عن أمينة .

قالت ذلك بصوت عال جداً والمرأة مازالت تحدق فينا . . عيناها واسعتان وجانب وجهها مترب وخصلة شعر بيضاء تطل فوق أذنها من ثقب كبير فى الخمار .

– من يريد أمينة ؟

وشى صوتها بأنها ثقيلة السمع . . خالطته نبرة تحس معها أن صاحبها نفض يده من الدنيا عن عجز وقهر وعدم فهم . . صفحة خدها غير المتربة بها آثار شقوق ربما من تأثير الشمس . . شفتها العليا يشقها خط عميق من منتصفها كأنها شفة جمل !

مدت يدها فى اتجاه الحدائق قائلة فى ضجر :

– أمينة عند الأستاذ مدحت . .

وللحظة خيل إلى أنها تهم بمعاودة الرقاد . . لكن المخبر قال لها بصوت عال :

– هذا هو الأستاذ مدحت . . أين أمينة ؟

هبت المرأة واقفة فى نشاط دهشت له . تقدمت من مدحت وقربت وجهها من وجهه وضيقت عينيها :

– أنت مدحت ؟

قبل أن يرد مدحت أو ننتبه إلى ما حدث – فوجئنا بها تقبض على ياقة قميصه وتلفها حول يدها حتى لتكاد أن تخنقه :

– أنت مدحت ؟ . . أنت ؟ .

هزته بعنف ونحن نحاول تخليصه منها وهى تصرخ :

– أنت مدحت . . أنت الذى تأكل أموال اليتامى ؟ . . أنت ؟

صرخ فيها المخبر وكلنا يحاول تخليصه منها :

– اختشى يا ولية . . أنت عارفة ما عملته بنتك ؟ .

تركت المرأة قميص مدحت ، وحدقت فى المخبر الذى أشار ناحيتى وأضاف :

– سرقت فلوس البك . . ألف جنيه . . أنا بوليس .

عينا المرأة صورة مجسمة للهلع والبلاهة . . حدقت فى وجهى وكأنها لاتنظر إلى شىء . . ثم فى وجه المخبر . . ثم وجه عباس . . ثم فى وجه ابنتها . . وتراجعت ، وجلست على الجوال متربعة . . رأسها مرفوع يحدق فينا وعيناها تطرفان . . ولا أدرى لماذا خيل إلى أنها تبتسم . . ابتسامة من يختلط عليه الأمر بين الحلم والواقع !

* * *

لم أتنبه إلى الصبية وهى تدخل البيت القمىء المواجه لظهر الكشك . . تنبهت وهى تعود ومعها امرأة فى الثلاثين ، شديدة البياض ، تعلو وجهها صفرة ، عليها رداء رخيص ، وخمار أسود . . وضعت يدها على رأسها أمامنا وولولت بصوت مبحوح :

– يا خراب بيتنا . . يا مصيبتنا . . البيت قدامكم ، فتشوه . . أمينة عند خالتها من يومين . . ماذا فعلنا فى دنيانا يارب . . فتشوا البيت !

ومضينا فى إثرها يتقدمنا المخبر والصبية على حين لم تتحرك الأم من مكانها . لأول وهلة خيل إلى أنها قادتنا إلى مكان آخر كى تضللنا . . فلم يكن فى الحجرتين الصغيرتين المتداخلتين غير سرير حديدى مائل ، أعمدته تقشرت ، وبضعة أجولة من الخيش بعضها مخيط فى بعض مفروشة على الأرض فى الحجرة الداخلية ، ووسادة طويلة وطفل رضيع نائم ، وفوقه نافذة ، أو ربما كوة مستديرة من الخشب «الأبلكاش» .

أحسست بحركة ورائى ، فالتفت لأرى الطفلة الصغيرة التى تأتى بصحبة أمينة . . ترفع رأسها إلينا فى استغراب . . لم أتبين ملامحها لرداءة الضوء إلا بعد

وقت طويل . . خلفها جاء الطفل بجلبابه الأبيض وخطوطه البدائية تنبئ بالختان . . التصق الطفلان بالمرأة التى مضت تولول :

– ربنا يكفنا شر الحرام . . نحن نبعد عن البلاء والبلاء لايريد أن يتركنا ! البيت قدامكم فتشوه . . ياخراب بيتنا يا مصيبتنا .

استدرنا خارجين دون أن يتفوه أحدنا بكلمة . . فى الخارج رأينا الأم ، وظهرها لنا ، تضع رأسها على راحتها . قال المخبر يسأل المرأة المولولة :

– أنت أختها .

– أختها .

– اسمك ؟

ردت بالصوت الباكى :

– نادية . . أنا متزوجة وأسكن فى شبرا . . لكنى فى زيارتهم .

– قلت إن أمينة عند خالتها من يومين .

واستدار ليوجه لى نظرة ذات مغزى .

– من يومين . . هه ! طيب ! ممكن تتفضلوا معنا إلى القسم وقبلها ممكن نعرف بيت خالتها !

ردت بصوتها الباكى :

– حاضر . . أروح معكم عند خالتها .

وقالت لأختها عادت للجلوس فى الكشك .

– اقفلى الدكان ، واذهبى لأبيك . قولى له : تعال حالا أمينة أوقعتنا فى مصيبة .

ولم تكن الأم قد رفعت رأسها من على راحتها . . ملامح وجهها تدل على

أنها لاتحس بوجودنا . . أدخلتنا فى العالم الغريب الذى نفضت يدها عنه .

* * *

عدنا إلى الكشك من جديد بعد أن لطمت الخالة خديها وأنكرت كل معرفة لها بمكان أمينة . . وجاء رجل أسمر نحيف فى حدود الخامسة والخمسين ، يرتدى جلبابا مخططاً رخيصاً ، ووقف قبالتنا أمام الكشك وفى ملامحه ضراعة . . لم ننتبه لوجوده فى البداية . . حسبناه ضمن الناس الذين تجمعوا للفرجة . . تعلقت نادية بكتفه وأجهشت بالبكاء :

– أمينة جاءت لنا بمصيبة ياأبى . . سرقت من بيت البك ألف جنيه !

لم يعلق الرجل . . ظلت نظراته الضارعة عالقة بوجوهنا دون أن ينبس . .

سأله المخبر :

– أنت أبوها .

قال وكأنه يقدم كلمة ويؤخر أخرى :

– نعم . . أبوها . . يا . . بك .

– وقعت يا حلو !

قال المخبر ذلك وهو يرسل لى نظرة من جانب عينه كأنه يقول لى : انتبه جيدا ، فأمامك عبقرية بوليسية لم يكتشفها أحد بعد ! . . ثم وضع يده فوق كتف الرجل وقال له فى هدوء بارد كنصل السكين :

– ليكن فى علمك . إذا لم تحضر البنت من تحت الأرض فى ظرف ساعة نستذهبون جميعاً فى داهية .

ومد سبابته إلى صدرى وحولها إلى صدر عباس وأضاف :

– البكوات من كبار المسئولين فى البلد . . ممكن جداً يقلبوا علينا الدنيا كلها !

تنبهت إلى أن مدحت غير موجود . . تلفت يمنة ويسرة فلم أجده . . سألت (عباس) فقال فى نبرة اعتذار :

– مشى . . معه موعد مهم ومشى . . أعصابه تعبت لما أمسكت المرأة فى خناقه .

وسمعت المخبر يقول للرجل وهو يهزه من كتفه :

– أنا أنذرتك وأنت حر ! فأنا بطبيعتى أحب الحلول السلمية . . لكن إذا كان الذوق لم ينفع فأنت عارف بما يمكن أن يحصل !

العرق يغطى وجه الرجل وينحدر فى الأخاديد المسودة إلى أسفل . . يتجمع فى نقاط صغيرة أسفل ذقنه ويتساقط على صدره . . لم يكن يتكلم . . يفتح فمه ويغلقه وتصدر عنه أصوات واهية غير مفهومة . . فقط تعطى الإحساس بأنه مستعد لأن يجثو على ركبتيه إذا طلب منه ذلك .

طوال الوقت كانت نادية تضع يدها على رأسها وتردد بصوت مبحوح :

– يا خراب بيتنا يا مصيبتنا ، عملنا إيه ياربى !

بنتها الصغيرة بشعرها المهوش تتعلق بثوبها باكية ، وطفلها بجلبابه ذى الخطوط البدائية الحمراء يشد ثوبها كأنه يطلب منها الذهاب ويتطلع إلينا فى دهشة . . على حين ظلت الأم – ورأسها على راحتها – تعتبرنا جزءاً من العالم الخارجى غير المفهوم .

* * *

٩

قال لى مدحت بانفعال :

- أنت أخطأت فى موقفك . . المفروض أن تترك المخبر يأخذهم جميعاً إلى قسم البوليس . . هناك فقط يمكن أن يدلوك على مكان البنت .

- لكن . .

- لا لكن ولا يحزنون ! أنت شخصية ضعيفة ولا مؤاخذة . . هؤلاء الناس لا ينفع معهم إلا الضغط . . من كان يصدق مثلاً أن أمينة بنت لبؤة ؟ . . كانت توهمنا أنها حرة وها قد ثبت أنها بنت لبؤة ! كان المفروض أن أنتبه من البداية . . فالبنت التى أحضرتها إلى معروف عنها أنها لبؤة . . ما معنى هذا ؟ . . الطيور على أشكالها تقع طبعاً !

كان مدحت يتكلم بانفعال شديد ، على حين كان (عباس) يريح رأسه على كفيّه واضعاً مرفقيه على المائدة وقد ظهر عليه الهم . . لم يغير هذا الوضع إلا بعد أن استأذن مدحت فى الخروج . . رفع رأسه وقال لى بعينين محمرتين من تأثير المخدر :

- هل أبوح لك بسر خطير؟

- خيراً .

- فكرت فى يوم من الأيام أن أتزوج أمينة . . الخوف من كلام الناس هو الذى منعنى .

مرت فترة صمت قصيرة كان عباس خلالها يحدق فى وجهى مفتوح الفم . . مصدر دهشته أنه لم يرنى أدهش لهذا السر الذى وصفه بالخطير . . لم يكن يعرف أننى قرأت كراسة مذكراته ، ولم أكن فى حالة نفسية تمكننى من التظاهر بالدهشة :

رمش بعينيه رمشات سريعة قائلاً :

– واضح أنك لا تصدقنى .

لم تكن لى رغبة فى خوض أى حديث يخص الآخرين ، ولم أكن فى حالة تسمح لى بمجاملة أحد ، فلذت بالصمت .

دسّ كفه فى كفى وقال بصوت متهدج :

– وحق العيش والملح . . عزمت فى يوم من الأيام أن أتزوجها .

لم أرد . . تذكرت أن نقودى قد ضاعت ، وأنه ليس بجيبى غير ثلاثة جنيهات والشهر ما زال فى منتصفه ، ولا أقارب لى أو أصدقاء بالقاهرة ، والسفر إلى الإسكندرية الآن معناه تأجيل البحث عن النقود ، مما يعنى ضياعها نهائيًّا ، ولا أعتقد أن « عباس » أو مدحت يستطيعان إسعافى بشىء ، فلم أكلف نفسى عناء الرد .

حدق عباس فى وجهى قليلاً ، ثم قام وذهب إلى حجرته . . طالعتنى فى الصالة صورة مدحت بشاربها الصغير ، ورباط عنقها الفاقع ، فتملكتنى رغبة فى تحطيمها ، لكننى وجدت أن الأمر لا يستحق .

عاد عباس يحمل فى يده ورقة شفافة ، فتحها ، وتناول سيجارتين من علبتى ، ومضى يفرغ ما فيهما من دخان . . ثم تنهد طويلاً وقال لى :

– خلِّيها على الله .

فتح الباب ودخل مدحت ووراءه صبى الكواء يحمل لفافات بها (كبدة) وفاكهة وثلاث زجاجات بيرة . . أمر الغلام أن يضعها على المائدة ويذهب .

ودخل عباس المطبخ لإحضار طبق ، فانتهز مدحت فرصة تواريه ودس فى جيب منامتى ظرفاً صغيراً . . أمسكت بيده متظاهراً بالرفض لكنه أصر قائلاً :

ـ أنا أخوك . . !

أكلنا فى شرفة عباس وشربنا البيرة ، وحين دخلت حجرتى متظاهراً بإحضار شىء ، وفتحت الظرف وجدت به عشرين جنيهاً ، فعدت إليهم وشربنا السجائر التى افتن عباس فى لفها ، وبدت لى الدنيا بهيجة . . وقلت لنفسى : إن الإنسان بصفة عامة يتقدم برغم غبائه ، وإن المشاكل العالمية ليست مستعصية على الحل ، وإنه من غير المعقول أن تكون أمينة الوديعة هى التى سرقت النقود ، وإن هناك حلقة مفقودة مطلوباً منى أن أعثر عليها ، وستحل قضية الشرق الأوسط إن آجلاً أو عاجلاً ، وسنبنى بلدنا وننشر الخضرة فى كل مكان ، وستعود سعاد وتعتذر لى عما بدر منها !

مع حلول المساء رق النسيم ، وطاب السهر ، وجاءنا المخبر ، فاحتفينا به ، وقال لنا : إنه قام بتحريات واسعة النطاق عرف منها أن أمينة تعشق شاباً من أبناء حى « بولاق » وأنها تقيم هناك ، وأن إحدى جاراتها رأتها ترتدى فستاناً حديثاً يصل إلى منتصف الفخذين ، لكنها عادت للتخفى لما عرفت أن البوليس يبحث عنها .

وعدل المخبر من وضع ياقة قميصه الأسود حول عنقه النحيل ، ومسح على صلعته وقال بلهجة الواثق :

ـ كل ما ينقصنى الآن هو تحديد البيت الذى تقيم فيه . . لكننى دبرت

خطة تقودنا إليها ولو كانت فى بلاد واق الواق !

وتنهد عباس بصوت مسموع .

* * *

كنت بالقرب من باب الشقة عندما سمعت صوت الجرس . . فتحت الباب لأجد أمامى رجلين . . أحدهما قصير ممتلئ الجسم ، يضع على رأسه طربوشاً ، ويرتدى جلباباً من الصوف الرمادى ذى القصب الذى يدور حول العنق . . لباس أعيان الفلاحين . . والآخر يرتدى جلباباً رخيصاً وعلى رأسه طاقية من الصوف البنى .

– أى خدمة ؟

لم يرد القصير المطربش . . دفع بعصاه العاجية المقبض أمامه ، واندفع إلى الداخل وهو يقول للآخر :

– كما قلت لك . . المسألة مسألة وقت ليس إلا !

وجلس فى الصالة بعد أن وضع عصاه فوق المائدة على حين صافحنى الآخر وقال لى فى نبرة اعتذار :

– مدحت هنا يا أستاذ ؟

– نعم .

– هذا عمه ، وأنا قريبه .

– أهلاً وسهلاً .

وكنت أريد أن أقول : « تفضلوا » لكننى عدلت بعد أن كان « العم » قد « تفضل » فعلاً .

وجاء مدحت وعباس من الداخل . . هجم عباس على الرجل المطربش

وعانقه بحرارة وسلم على الآخر ، وأحضر بضعة مقاعد من حجرته ومضى يرحب بهما . . على حين سحب مدحت مقعداً ، وجلس بعيداً عنهما بعد أن سلم بأطراف أصابعه وكسا وجهه بتقطيبة تهدد بالانفجار .

نقر المطربش على المائدة قليلاً وقال بهدوء :

– كل شيء له نظام يا أستاذ مدحت ، وكل وقت له أذان .

انفجر مدحت دفعة واحدة . . مد ذراعه على طولها فى وجه الرجل وصرخ فيه :

– أقسم بالله العظيم . . ما أنزل عن حقى إطلاقاً . . أنتم جميعا اتفقتم ضدى لكننى سأؤدبكم واحداً واحداً .

أدار العم عنقه ناحيتى وقال بهدوء :

– صل على النبى يا أستاذ .

– اللهم صل عليه .

– افرض أننى عمك ، وظروفى المالية لا تسمح بكل طلباتك . . هل تفضحنى ؟

صرخ فيه مدحت :

– اسمع . . أنا لا أحب كلام المصاطب . . فلوسى تدفع لى على دائر المليم ، وإلا فإننى سأبيع لغيرك .

– ولماذا تبيع لغيرى يا مدحت ؟ . . هل يرضيك أن أمشى فى البلد ، والناس تشير ناحيتى وتقول : « أرضهم اشتراها الغرباء ، وهو عامل نفسه زعيم » ؟ ! . . يرضيك يا مدحت ؟

ضرب مدحت ركبته صارخاً :

- يرضيني .

صمت العم . . وجاء عباس لهم بالشاى فقال لى العم :

- والله العظيم يا أستاذ . . والله العظيم . . الضرائب التى ندفعها للحكومة على الأرض فى هذه السنوات العكرة ، لا حصر لها ! كأننا نزرع أرضنا بالإيجار . . مدحت لا يحس بما نحن فيه ، مع أنه وحيد أبويه ، وورث عشرة أفدنة مثلما ورثت أنا تماماً . . لكن أنا عندى ثلاثة أولاد وبنات فى الجامعة . . هل أستطيع أن أشترى عشرة أفدنة دفعة واحدة ؟

قال مدحت بصوت أقرب إلى البكاء :

- أنا واقع فى مأزق حرج يا عمى . . لن يخلصنى منه غير بيع أرضى كلها .

- أنت تردد « مأزق حرج . . مأزق حرج » . . ما هذا المأزق الحرج ؟

- سر أحتفظ به لنفسى !

- سر على عمك ؟

- على نفسى أيضاً !

- طيب . . مستعد أعطيك مبلغاً ، تصرف به أمورك إلى أن يحلها ربنا .

- لا . . والمبلغ كله أو أبيع لغيركم .

- يا مدحت عيب . . أنت موظف ولك مرتب تصرفه كل شهر ، ولك إيراد منتظم يصلك . . انظر إلى عباس المسكين الذى لا يأتيه غير خمسين جنيها فى السنة كلها فوق مرتبه لدرجة أنه أضرب حتى عن الزواج .

- قلتها كلمة ! المبلغ كله أو البيع لغيركم !

- يرضيك ؟

- يرضينى . . اجمع أخواتك وأولاد عمك وأولاد أخواتك وتفاهموا

مع بعضكم . معكم مهلة عشرة أيام !

وضحك الرجل ذو الطاقية البنية وقال :

- تفاهموا فى هدوء . . والصبر طيب .

صرخ فيه مدحت :

- صبرى نفد ، ولا تتدخل أنت من فضلك !

شرب العم الشاى على عجل وقام . . قال وهو يخطو إلى الخارج :

- الكعبة لها رب يحميها .

* * *

١٠

قضينا ثلاثة أيام ونحن نطبق على الطبيعة الخطة التى رسمها المخبر . . .

وفى البداية تخيلت أننى سأرى خطة مثل تلك الخطط العجيبة التى نشاهدها فى الأفلام البوليسية . . حتى إننى توقعت أن يحضر لى المخبر فى صباح اليوم الأول وهو يرتدى قبعة تميل إلى الأمام فتغطى نصف وجهه ، ويضع على عينيه نظارة سوداء ، ويكسو يديه بقفازين ، ويلبس حذاء جلديا طويلا يصل إلى ركبتيه ، وفى يده جهاز يسجل الأصوات ويلتقط الصور .

وفوجئت بأن (الخطة) لم تكن تزيد على أن نجلس فى مقهى صغير قريب من الكشك فى النهار ، وأن نجلس فى المساء على عدة أجولة من الخيش مفروشة بجوار الكشك ! . .

كان المبنى المجاور للكشك – وهو مشروع مسجد صغير – يلقى بظله على مستطيل ، تفرش به بعض الأجولة الفارغة ليلاً ، ويجلس عليها عدد غير قليل من سيدات الحارة وأطفالها ، وأحياناً ينضم إليهم بعض الرجال كبار السن ، يثرثرون فى شتى الأمور .

كان من رأى المخبر أن « جهنمية » الخطة إنما هى فى أنها تتيح لنا أن نجلس بينهم متخفين فى الظلام الدامس لنترك لهم فرصة الثرثرة حول موضوع أمينة الذى يشغل الحارة ، ومن هنا نستطيع أن نستدل على مكانها .

فى البداية هدد الأم ونادية والصبية التى تجلس فى الكشك – بأنهم جميعاً

سيذهبون فى دهاية لو أطلعوا أحداً على شخصياتنا . . وقال لى : إن « الخطة »
ناجحة جدًا . . فحتى لو استطاع أحد المثرثرين أن يتعرف علينا أو يشك فينا ،
بعد أن تعتاد عيناه الظلام - فإنه سيكون قد ثرثر بشىء ماقبل ذلك .

عباس ضاق بالأمر كله وتركنا فى اليوم الثانى ، أما مدحت فقد امتنع عن
المجىء خوفاً من الأم .

وتوطدت الصداقة بينى وبين المخبر ، فروى لى قصة حياته ثلاث مرات
خلال يومين . . وكان فى كل مرة يضيف إليها أشياء ويحذف منها أشياء ،
ويصمم فى النهاية على أنها تصلح للسينما لكثرة ما فيها من « مواعظ » !

ولم نخرج بأى معلومات جديدة عن المكان الذى تقيم فيه أمينة . . كل
ما خرجنا به هو أن الأب يعمل عند أحد « المقاولين » ويخرج إلى عمله فى
الصباح ولا يعود إلا عند منتصف الليل . . وأن أمينة كانت تعمل فى أحد
المصانع ، واتهمت فى واقعة سرقة ، ولم تثبت عليها التهمة ، لكنها طردت من
المصنع ، فاضطرت للعمل عند مدحت . . وأن نادية طلقت من زوجها
حديثاً ، وجاءت لتقيم بطفليها مع أهلها بصفة دائمة ، وليس للزيارة كما زعمت
لنا . . وحين سألها المخبر عن سبب الطلاق ، تنهدت وقالت بصوتها المبحوح :

- « رضينا بالغلب ، والغلب لم راضى ! »

وعرفنا منها أن ضيق المعيشة هو السبب ، وأنه يكبرها بثلاثين عاماً .

فى اليوم الثالث استقبلتنا نادية أمام الكشك وفى يدها حقيبة جلدية كبيرة بها
ثلاثة ثياب للأم ، وثلاثة لها وثلاثة ثياب لكل من أختها الصغرى وطفليها ،
وأبيها !

كانت الثياب جميلة ، وتنم عن ذوق رفيع ، وخارجة لتوها من عند

الحائك ، ومازالت خيوطه الرفيعة عالقة بها .

قالت لنا نادية إن أمينة جاءت فى الصباح الباكر بسيارة أجرة ، وأنزلت الحقيبة فى رأس الحارة ، وطلبت من إحدى الجارات أن توصلها لنا ، ثم اختفت السيارة بها .

روت لنا ذلك فى أنفة وعزة ، واكتشفت أن لون عينيها يتغير بتغير الضوء وأنها لا تقل جمالاً عن أمينة لولا هزالها .

ووضع المخبر سبابته اليسرى فوق حاجبه الأيسر ، وأرسل لى نظرة جانبية مركزة ، كأنه يقول لى : انظر إلى سبابتى وهى تشير إلى منبع العبقرية التى أوصلتنا إلى هذه النتائج .

حركته هذه لم تعجب نادية . . كشرت عن أنيابها – لأول مرة منذ رأيتها – ولمعت عيناها وقالت له فى حدة :

– نحن أشرف من أشرف بنى آدم ، وكل واحد يحفظ لسانه !

واهتز المخبر . . انحنى لا شعورياً أمام العينين الجميلتين المتنمرتين ، وأحسست أنه يتملقها بنظراته .

* * *

ونحن قابعون فى الظلام جاء « سيد » شقيق أمينة . . لست أدرى من أين جاء ؟ ولم أكن أعرف أن لها شقيقاً . . شاب طويل نحيف حاد التقاطيع ضيق العينين ، فوق العشرين بقليل . . بوجهه وعنقه آثار ندوب وخدوش يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً أسود . . عرفت – وببساطة – أنه قضى مدة بالسجن ، لضربه شخصاً بمطواة ، وخرج فى عفو عام ، بعد أن قضى نصف المدة ، وأنه يعيش بعيداً عن عائلته ، ولا تعرف له عنواناً ، وأنه جاء بالمصادفة البحتة ،

وعرف المخبر من أهل الحارة .

كان عصبياً فى حركاته . . تارة يحملق فينا بكراهية شديدة ، وتارة ينفخ ، ويشتم نادية وأمها وأباها لأن أمينة تعمل خادمة فى بيت وليس فى مصنع كما يزعمون له ؟ وكلما حاولت نادية الدفاع عن نفسها زأر فيها بوحشية ، فيظهر عليها الهلع وتبتلع نصف كلماتها .

وحينما أسمعه المخبر « موشحه » عن مقدرته على أن يضع العائلة كلها فى السجن وأن النقود المسروقة تخص شخصيات لها خطورتها فى البلد ، وأنه لن يقف مكتوف اليدين إن لم تظهر البنت — زام فينا قائلاً :

— سأحضرها ولو كانت فى أمريكا ، ولاداعى للكلام الزائد !

وسكتنا ولا سيما بعد أن عرفنا أن هذه هى المرة الثالثة التى يضرب فيها « سيد » شخصاً بمطواة .

* * *

غصت أجولة الخيش بالنساء والأطفال ، وتشعبت الأحاديث ، وروى لنا المخبر طرفاً من مغامراته ، ناسياً أن التخفى فى الظلام هو كل مافى خطته المركبة !

وغص الشارع الكبير القريب بعربات الكارو تجرها الحمير والخيل الهزيلة ، وركابها عائدون إلى بيوتهم ، وبدأت عربات الفول ، بقدورها التاريخية وألوانها المتباينة تتتابع كعربات قطار البضاعة ، تنسحب فى زحام شديد .

عرفنا الكثير — وببساطة شديدة — عن حياة المتجمعين ، وأدق أسرارهم ، بما فى ذلك أنهم جميعاً من الأسر التى لا يزيد دخلها عن عشرة جنيهات فى الشهر ، لكن هناك مايشبه الإجماع على أن الأيام القادمة ستكون أفضل ، وأن فرج الله قريب .

ثمة شخصان لم يكونا معنا . . سيد الذى يتركنا بمعدل مرة كل نصف ساعة ، ويدور على بيوت الأقارب والأصدقاء ، ربما يجد من يدله على مكان أمينة ثم يعود مقهوراً ، فيجلس فى صمت يجذب الأنفاس العميقة من سجائره ، ولا يفتح فمه إلا إذا شتم نادية ، أو نهر أحد الطفلين ؛ والأم التى تجلس متربعة وحدها فى الجانب الآخر من الكشك ، دون أن تحول رأسها عن راحتها ، كأنها تزيد المسافة بينها وبين هذا العالم غير المفهوم .

* * *

لم أحس به حين جلس بجوارنا فى الظلام . . رجل قمىء فى حدود الأربعين يرتدى معطفاً أصفر ذا جيوب كبيرة من تلك التى يرتديها المقاولون فوق جلباب من الحرير . . سمعته يقول : إنه يعرف المكان الذى تقيم فيه أمينة . . قال ذلك بلهجة بطيئة أحسست معها أنه جاء للمساومة على شىء ما .

لم يرد بسرعة عندما هبت نادية وسيد وسألاه فى لهفة عن مكانها . . تجاهلهما تماماً والتفت إلى المخبر ، وكان يجاوره من ناحية ، ولايوجد رجال غيره — باستثنائى أنا و«سيد» — من ناحية ، وقال له بلهجة بطيئة واثقة : إنه تحمل الكثير من الإساءات وإنه غير مستعد لتحمل أى إساءة جديدة هذه المرة ، وإنه مستعد أن يغفر ويسامح ويفتح صفحة جديدة ، ومستعد أيضا أن يتغاضى عن إبلاغ البوليس عن مكانها لو أنهم عاملوه بما يجب من احترام .

صاح المخبر فى سيد ونادية بصوت عال يأمرهما بالجلوس لما رآهما يلحان على الرجل أن يخبرهما بمكان أمينة . . صيحة قوية مشحونة بالخبرة ، نبراتها تهدد بعاقبة البوح بشخصيته..

عمّ الصمت ، وربت المخبر كتف الرجل وقدم له نفسه على أنه من أعز

أصدقاء العائلة ، وعلى أتم الاستعداد لإجابة كل مطالبه نيابة عنها ، ووصفه بأنه من أصل طيب .

واهتز الرجل للشهامة التى قوبل بها من جانب المخبر ، وفهمنا منه ، بعد ثرثرة طويلة ، وتوريات لاحد لها – أنه سبق له أن تقدم لطلب يد أمينة لأخيه ، ورفضته بحجة أن أخاه متزوج وله ثلاثة أطفال ، ولم تحرك الأسرة ساكناً فى الضغط على أمينة ، مع علمها بمركز أخيه الذى يعمل « مقاولاً » فى أعمال السباكة المعمارية ، مفضلة عليه شاباً متشرداً فى بولاق يعمل فى أعمال غير ثابتة . . واختتم حديثه بأنه غير مستعد هذه المرة لرفض جديد .

وهب سيد واقفاً ، وشده من كتفه فى عنف حتى أوقفه ، وقال له بصوت عال جريح :

– دلنى عليها حالاً ، وأنا أنفذ لك كل طلباتك .

وقف الرجل وهو يلهث من الانفعال . . وضجت النساء والأطفال بلغط لاحد له . . وتطور الأمر بسرعة غريبة . . وخرجنا إلى الشارع الكبير وقد تجمع حولنا حشد من الناس . . وأوقف سيد عربة أجرة ، بالرغم عن سائقها ، وفتح الباب ، ودفع صاحب المعطف إلى داخلها فى عنف ، وركب بجواره وقال لنا :

– اركبوا بسرعة .

شدنى المخبر من يدى ، ووقف بى بجوار جدار يبعد عن الحشد وهمس لى :

– إلاّ بولاق .

– لا أفهم .

– أنا مستعد أذهب معك إلى أى مكان . . إلاّ بولاق !

– السبب ؟

- إلاّ بولاق !

لم أكن أعرف شيئاً عن بولاق ، إلا أنه الحى الذى تزعم ثورة القاهرة الثانية ضد الحملة الفرنسية .

- قل لى عن السبب ؟

- تحصل مشاكل لاحصر لها .

وجاء سيد يسألنا عن سبب تخلفنا ، فقال له المخبر إن ذهابنا بهذه الطريقة إلى بولاق واعتقالنا لفتاة فى مظاهرة - سيثير ثائرة الحى الشعبى ، وستكون العواقب وخيمة . . وأقترح أن نفكر فى طريقة جديدة نذهب بها إلى هناك غير هذه الطريقة التى وصفها بأنها همجية .

كور سيد قبضته ، وضرب بها الجدار المقابل فى عنف ، كأنه جن ، وصرخ فى المخبر صرخة عالية مرعبة :

- اركب . فركب !

* * *

دخلنا أزقة بولاق الطويلة والقصيرة والمقوسة واللولبية والدائرية . . وخيل لى أننا تهنا فيها ، فتذكرت تحذير المخبر . . ولمعت فى ذهنى فكرة أن الأمر لايعدو أن يكون مؤامرة لاستدراجنا إلى « علقة » رائعة .

غاب عنا صاحب المعطف دقائق ، وعاد ومعه أربعة شبان أقوياء يرتدون البنطلونات الكاكية ، وقال لنا : إنه اتصل - بطرقه الخاصة - بالمكان الذى تقيم فيه أمينة فعرف أنها ذهبت لقضاء شأن ما ، وستعود بعد قليل . . ورسم لنا « خطة » جديدة فحواها أن نجلس على ثلاثة مقاهٍ حددها لنا لمراقبة الطرق التى يتوقع أن تمر منها عند عودتها : جلست أنا والمخبر فى مقهى ، وجلس صاحب

المعطف ومعه اثنان من رجاله فى مقهى ، وجلس سيد ومعه اثنان فى مقهى .

كان المقهى الذى جلسنا عليه أنا والمخبر على ناصية أحد الأزقة ، بحيث لم نكن نرى من مجلسنا المقهيين الآخرين . . واخترنا مقعدين أمام المقهى ، احتلا – مع المائدة – ثلث الزقاق بالضبط .

فى أثناء شرب الشاى قلت لنفسى : أمينة بها جانب إنسانى عظيم ، لم تنس أهلها فى سعادتها ، فأرسلت لهم شيئاً من « فضل الله » . . هىَ أحسن منك ومن مدحت ومن عباس ! فنحن نأخذ من أهلنا ولانعطى ! وعلى أى حال فإن اكتشاف السرقة أخرجك من حالة البؤس التى تملكتك بعد صدمة سعاد ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

كانت الأزقة على ضيقها تغص بالسابلة وبمختلف الأزياء . . الجلباب والبنطلون الشارلستون والملاءة اللف والفساتين فوق الركبة . . وفوجئت بالمخبر قلقاً فى جلسته فسألته :

– مالك ؟

وضع كوب الشاى على المائدة ، ورمشت عيناه الضيقتان :

– اسمع . . سيد يجب أن يكون قريباً منا .

– لماذا ؟

– ربما مرت البنت من هنا .

– فى هذه الحالة سنرسل فى طلب سيد .

– لا . . سيد يجب أن يكون بجوارنا .

– السبب ؟

– ربما مرت البنت من هنا !

- قلت لك فى هذه الحالة سنرسل فى طلب سيد .
- لا ، ويجب أن يحضر من الآن .
- وكيف عرفت أنها ستمر من هنا ؟ . . لِمَ لاتمر من الزقاق الذى يجلس فيه سيد ؟
- احتياطيات .
نطق كلمة « احتياطيات » بطريقة خاصة تشعرك أنك أمام أحد العالمين ببواطن الأمور .
- أنت خائف ؟
- أنا لا أخاف أحداً . . لكن لا تنس أنك فى بولاق .
أغاظتنى طريقته فى نطق اسم الحى . . قلت له فى انفعال :
- ومابولاق ؟
- لا تتصور ما يمكن أن يعملوه فينا لو رأونا نمسك امرأة من عرض الطريق !
- لكننى أبحث عن حقى .
- أهل بولاق ناس جدعان .
انفعلت أكثر . . انفجرت فيه :
- أنا من مواليد « الأنفوشى » . . فى الوقت المناسب أخلع القميص والفانلة ، وأقف بالبنطلون ، وأسحب المطواة ، وأضرب بالروسية ، وأحياناً أشخر !
حدق فى وجهى بدهشة شديدة ، وشرعت شفتاه فى الاستعداد لبسمة ساخرة . . أنا فى نظره شاب نحيل صحتى متوسطة ، أطالب بوقف إطلاق

النار ، بعد أول لكمة .

بسط يده على المائدة وقال لى فى مجاملة رقيقة :

– أنت على العين والرأس . . وبصراحة واضح جدا أنك رجل جدع وتأكل عشرة !

ثم هب واقفاً وهو يقول فى خشونة ويتجه إلى الزقاق المجاور :

– لكن بعد إذنك أنادى «سيد» !

أدرت رأسى ناحية اليمين أحدق فى ظهره الذى ينحنى أعلاه قليلاً إلى الأمام وبقعة ماء – أوربما زيت – تلوث إحدى كتفى قميصه الأزرق ، وهو يختفى فى الزقاق الأيمن .

أدرت عنقى ناحية اليسار لأجد أمامى « أمينة » وجهاً لوجه . . فى البداية خيل لى أننى أحلم . . ترتدى فستاناً سماويًّا رائعاً ، وتعقص شعرها فى شكل وردة مقلوبة وفى يدها حقيبة أنيقة فى لون الفستان .

لم أعرفها لأول وهلة . . بدت وقوراً وفاتنة أكثر مما يجب ، فتوقفت عيناى على وجهها طويلاً أستمتع بالوجه الفاتن دون أن يخطر ببالى – فى البداية – أنها أمينة ! بعد ثوان ربما زادت على العشر قلت لنفسى أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟ ثم دوى فى رأسى الصوت الضخم . . أمينة . . أمينة .

كنت أتخيل – عند جلوسى على المقهى – أننى سأهجم عليها لحظة أن أراها ، وألوى ذراعها ، وأصرخ : « اللصة . . اللصة » لكن الذى حدث هو أننى وقفت بالطريقة نفسها التى أقف بها عند رؤيتى لصديق عزيز لم أره منذ زمن !

تقدمت نصف خطوة أعترض طريقها – ولم تكن قد رأتنى بعد – وأنا أمد

لها يدى بود حقيق :

- إزيك ياأمينة !

مهما نسيت من مواقف وأزمات وأفراح ولحظات سعادة ولحظات شقاء - فلن أنسى ما حييت ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهها لحظة أن وقع بصرها على ويدى ممدودة وأنا أقول فى لهفة حقيقية :

- إزيك يا أمينة !

لم تهتز أو تنزعج أو يبد عليها أقل اضطراب . . ابتسمت تلك الابتسامة التى لم أر مثل مرارتها ، لكنها هذه المرة ممزوجة بشحنة هائلة من العتاب . . أسبلت أهداب عينيها ورفعتها قائلة فى عتاب :

- كنت تأخرت . . ولو ساعة !

قالت ذلك بصوت خافت جدًّا وضعيف ومرهق وبمرارة إنسان يعاتب إنساناً عزيزاً عليه . . ولم أفهم معنى ما قالته إلا فيما بعد ، وإن كنت قد أحسست به . . وللحظة تملكنى شعور بالذنب لأننى أفسدت شيئاً ما كانت تدبره ، وكان يجب أن أؤجل حضورى . . لكننى تمالكت نفسى سريعاً ، وتذكرت أن نقودى قد ضاعت ، وأننى أمام اللصة التى سرقتها !

- تعالى ورائى .

ألقيت ببضعة قروش فى صينية الشاى ، وسرت أمامها بمقدار نصف خطوة ، وسارت بجانبى فى هدوء مستسلم دون أن تنبس . . الناس يسيرون فيما يشبه الزحام - عن يميننا ويسارنا ونحن نتدافع معاً بالمناكب دون أن نسترعى نظرهم . . فقط تظهر لمعة خفيفة فى عيون الرجال كلما وقعت أنظارهم على جه أمينة . . لمعة مندهشة متملقة ومحبة ، لكنها سرعان ما تختفى طبقاً للقانون غير

المكتوب ، لأنها تسير بجوار رجل . . وتفاديت من شخص كدنا نصطدم معاً فوقعت عينى على وجهها . . كان رقيقاً وهادئاً وإن شملته مسحة من الهم !

فى نهاية الزقاق التقينا بالمخبر قادماً نحونا ومعه (سيد) . . كانا يختلفان فيما بينهما على مجىء سيد . . سيد نفسه غير راض عن ترك مكانه ، لأن رفقاءه لا يعرفون أمينة بالنظر . . حين اقترب منا ووقع بصره على وجه أمينة ، وثب نحوها وثبة عظيمة ودار عليها بذراعيه ، كأنه اكتشفها مصادفة تسير بجوارى فى الطريق . .وأطلق صيحة عالية –كمن أصابه مس – وقال لها يا بنت الكلب ! وفى لمح البصر تجمع حولنا العشرات . . كلهم يزمجرون حولنا ونحن نسرع الخطى ، لنصل إلى « شارع ٢٦ يوليو » . . فوجئت بصاحب المعطف – الذى جاء هو ورجاله – يغفر فاه فى بلاهة ، ويتوه ويضيع هو ورجاله فى الزحام . . المخبر انكمش فى نهاية الزحام لاينبس ببنت شفة لكيلا يكتشف أحد أنه معنا ! . . رجل أعور طويل يرتدى جلباباً أبيض بياقة متهدلة ، يزمجر ويحرض المتجمهرين علينا ، ويردد : « الشرف غالى يا جدعان . . الشرف غالى » دون أن يعرف عنا أو عنها أى شىء !

كان طويل العنق ، رفيعه ، كالديك العجوز منحول الشعر . . صرخ فى وجهى قائلاً ، وعينه الوحيدة تبرق :

– إن لم تتركها وتذهب فوراً أشرّحك ! .

ركبتنى روح التحدى . . تذكرت موقفاً مماثلاً فى « الأنفوشى » عندما كنت فى الثامنة عشرة ، وغازل أحدهم فتاتى . . تحديت الرجل الأعور ، ودفعته بعيدا عنى ، واقتربت من « سيد » أساعده فى الإمساك بأمينة ولا سيما أننى رأيت الكثيرين يدورون حوله ، ويزمجرون فى وجهه ، مهددين بذبحه إن لم يتركها !

فجأة رأيت نفسى مشدوداً إلى الخلف فى قسوة . . حتى بعدت عن أمينة وسيد قرابة ثلاثة أمتار . . صحت فيمن شدنى بأننى رجل مهم جداً فى الدولة ، وأننى سأقلب الدنيا كلها فوق رءوسهم (فيما بعد طبعاً !) ، ولكنه لم يعرنى انتباهاً . . وتقدم منى رجل قصير منكوش الشعر وربت كتفى قائلاً فى ود : « سعادتك تكون مطمئنًا جدا ، وأنا سأخلص لك موضوعك » ، ثم أدخل يده فى جيبى ، ولما لم يخرج معه غير المنديل ، رماه أمامه فى تأفف ، وحدجنى بنظرة احتقار وابتعد !

كان سيد يدور على أمينة بذراع ويدفع من حوله بالذراع الأخرى . . صياحه أعلى من صياحهم وتحديه لهم يفوق تحديهم له . . لم تستطع كثرة الأيدى الممدودة حوله أن تفلتها منه . . كلما نجح أحدهم فى إفلاتها قفز ودفعه بعيداً ، ودار عليها بذراعه وهو يصرخ : « أختى وأنا حرّ فيها » . .

أمينة لم تكن تفعل شيئاً غير البكاء والاستسلام التام لذراع أخيها .. بل كانت تدور بذراعها حول كتفه لتساعده فى الإمساك بها . . صاحب المعطف ورجاله والمخبر – لم أر منهم أحداً عليم الله . . صياح يصم الآذان (وشارع ٢٦ يوليو) لا يريد أن يظهر . . وبدأ التردد على الكثيرين حين رأوا تصميم سيد . . كلمة « أختى » جعلت بعضهم يشك فى الأمر ويتوقف . . تنبهت إلى شاب وسيم يرتدى قميصاً أحمر ، وبنطلون رعاة البقر ، يدافع عن سيد ويمنع الآخرين عن الاقتراب منه ويلصق ظهره بأمينة . . خمنت أنه قريبها أو ربما صديق سيد جاءت به المصادفة .

تكاثر عدد الواقفين على الحياد ، وظهر المخبر . . سمعته يخاطب رجلاً طويلاً عليه قميص أسود عرفت أنه « مخبر » من أبناء الحىّ . . قال له : أنا مخبر ومعى

البك . . نطق كلمة « البك » وهو يشير ناحيتى . . سرت همهمة فى الجموع بأننى ضابط بوليس . . وتوقف الكثيرون عن مهاجمة سيد ، وإن لم يمنعوا غيرهم من مهاجمته . . ولم يكف الرجل الأعور ، بعنقه الطويل الرفيع – من شن الهجمات ، والتحريض علينا بحماسة غريبة . . وتقدم منى شابان أنيقان مدّا لى بطاقتيهما الشخصية وقال لى أحدهما :

– نحن طلبة فى الجامعة . . خذ البطاقات ، سندافع معك عن البنت .

ودارا فعلاً حول سيد . . وهرول أحدهما إلى شارع ٢٦ يوليو ، الذى اقترب منا ، واعترضا طريق سيارة أجرة ، وصاحا بنا : « اركبوا » فاندفعنا نحوها . . لكن الرجل الأعور قاد هجوماً ناجحاً ، بجناح من رجاله ، وهاجموا سائق العربة صائحين وهم يدقون على سقفها فى عنف : « امشى يا حمار » فلاذ بالفرار !

هجم الشاب الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر ، وأمسك بالرجل الأعور من ياقته الخلفية ، وشده إليه ، ثم دفعه بعيداً فى عنف ، والآخر يتطوح ويردد كلمة « الشرف » . . وصرخ المخبر الطويل وطلب من كل واحد أن يذهب « إلى حال سبيله » وإلا اضطر إلى طلب قوة من قسم البوليس ، فانضم إلينا عدد من الواقفين على الحياد . .

وفجأة ظهر صاحب المعطف ، ودار برجاله حول سيد وأمينة وأعلن على الملأ أنه يسيطر على الموقف تماماً ، وأنه مستعد لإراقة الدماء ! . . وقام الرجل الأعور بهجوم أخير ببقية فلوله ، وحاول أن يخترق حائط صاحب المعطف ليصل إلى القلب ، لكن قواته كانت أضعف من أن تصل . . ونجح أحد الطلبة فى إيقاف عربة أجرة جديدة ، فأركبنا أمينة بعد « معافرة » وركبنا معها أنا وسيد

وطلبنا من سائقها أن ينطلق بنا بأقصى سرعته . . ونجح الرجل الأعور فى سحب الذين يمسكون به ، وأدخل رأسه من نافذة السيارة ، وقال لى بصوت جريح مهزوم :

– معلهش . . لكن أنا وراك والزمن طويل !

* * *

١١

فتحت حقيبة أمينة ، ونحن فى السيارة ، فوجدت بها ثلثمائة وخمسة وستين جنيها وبضعة قروش . . وطلب منى سيد أن نذهب إلى بيتهم ، وأبدى استعداده لفعل أى شىء أطلبه منه ، وتهدج صوته وهو يقول : « استر علينا الله يستر عرضك » ولم أكن فى حاجة إلى طلبه .

حين وصلنا أمام الكشك تجمع حولنا الجيران ، فطلب سيد — فى غضب — أن يذهب كل إلى حاله ، فتفرقوا صامتين . . ورفعت الأم رأسها تنظر إلينا باستغراب دون أن تتحرك فى جلستها .

لم نجد شيئاً نجلس عليه فى الحجرة الداخلية فاضطررنا إلى الجلوس على الأجولة المفروشة ، بعد أن رفع « سيد » الطفلين النائمين ووضعهما فوق السرير المائل ، بجوار طفل رضيع نائم .

ووقفت فوق العتبة الفاصلة بين الحجرتين — الصبية التى تجلس فى الكشك ، تنظر إلينا بعينين دهشتين ، وتنظر إلى أمينة المنكمشة فى ذلة باستغراب !

ودخلت علينا الأم تلهث لبدانتها . . تقدمت من أمينة ، وألقت بنفسها فوقها ، ودارت عليها بيديها وضمتها فى قوة ، كأنها تريد أن تدخلها فى بطنها من جديد ! وأجهشت فى بكاء حار مؤلم وجسدها يهتز فى عنف ، ولا يفهم من كلماتها غير : « بنتى . . حبيبتى . . تعالى فى حضنى ! » .

مضت تحتضنها ، ثم تمسكها من كتفيها ، وتبعدها عنها ، وتنظر إليها بإمعان ، كأنها لا تصدق أنها هى ، ثم تعود لتحتضنها ، وتقول لها : لن نزوجك بالرغم عنك أبداً يا حبيبتى ، وليذهب « المعلم رشاد » إلى ألف داهية !

وفوجئت بها تستدير ، وتدور بيديها حول عنقى وتقول باكية : « ربنا يخليك لأمك يا بنى . . هات راسك » . . فى هذه اللحظة دخل المخبر وصاحب المعطف والشاب الوسيم الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر . . وهبت الأم واقفة فى نشاط غريب ، وانحنت تمسك بأيديهم ، تحتضنها ، وتقبلها ، دون أن ينتبهوا ، وتردد وهى تَنْشِجُ : « هاتوا أيديكم . . أبوسها . . ربنا يخليلكم . . أمينة رجعت » .

وجاءت نادية . . وضعت إحدى يديها فوق رأسها ، ووقفت صامتة للحظات . . العينان الواسعتان تدوران فى الحجرة وألوان قوس قزح تتتالى عليها ، كأنوار النيون الملونة ، تلوح على البعد ، يطفأ لون ليظهر لون . تقدمت من أمينة ووقفت بجوارها . . فجأة رفعت يديها إلى أعلى وولولت قائلة إنها ستترك لها البلد والعالم كله ؛ بسبب المصائب المتتالية التى تجلبها عليهم ، وربما فكرت بسببها فى الانتحار ! عادت بعدها لتجلس بجوارها وتضع يدها على كتفها وتلصقها بصدرها قائلة بصوت باك : « إزيك يا أمينة ! » .

كانت أمينة تبكى فى صمت . . رأسها منكس ، وكتفاها متهدلان ، وحمرة خفيفة غزت سمرتها ، مع لمعة الدموع على وجنتيها ، فتغيرت تماماً . بدت فتاة أخرى مختلفة لها جمالها الخاص الذى يخالف جمال أمينة !

صرخ سيد فى أمه وأختيه وطلب أن يخرجن من الحجرة ويذهبن جميعاً « فى داهية » ، فسارعن بالخروج .

اقترب من أمينة « يحقق » معها عما فعلته ببقية النقود فتملكتها رعشة دهشت لها . . وبعد لعثمة طويلة ، ونظرات خائفة ، قالت : إنها اشترت ملابس لنفسها ، ودوائر ذهبية ليديها ، وأطباقاً « صينية » وأشياء من هذا القبيل . . وعرفنا أن عقد القران كان مقرراً له بعد عودتها من الحلاق ، لكنها وجدته مزدحماً ، فذهبت تبحث عن آخر ، فكان لقاؤنا بها .

عرفت الآن معنى كلمتها المعاتبة : «كنت تأخرت . . ولو ساعة ! » فتمنيت لو تأخرت .

* * *

التفت سيد إلى الشاب الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر وصرخ فيه :

– تضحك على أختى يا جبان ؟

رد عليه الآخر مزمجراً :

– اخرس قطع لسانك !

ووقفا بسرعة غريبة ، وتلاكما فى عنف ، وتناطحا برأسيهما ، وولولت نادية وأختها فى الحجرة الخارجية ، واستيقظ الطفل الرضيع صارخاً ، وحلنا بينهما . . واندفعت الأم إلى الحجرة واحتضنت الشاب الآخر وقالت لابنها فى انفعال :

– صلاح أحسن منك . . ابعد أنت وأبوك عنا . . صلاح أحسن منك .

تركزت نظراتنا على « صلاح » الذى شد معه الأم إلى ما بين الحجرتين ، وقال يخاطب نادية فى حرارة :

– والله العظيم . . والنعمة الشريفة . . أنا لا أعرف حاجة عن الفلوس المسروقة ، وأمينة أخذت منى تسعة وعشرين جنيها لتجهز نفسها .

ردت عليه نادية فى حماسة :

– أصدقك .. هى بنت حرام ، تضحك على الأبالسة !

ثم دخلت الحجرة ، تخوض فى زحامها ، لتحمل رضيعها الذى لم يكف عن الصراخ ، على حين انشغل صلاح فى مسح الدم عن شفتيه ، وراح سيد يتحسس حاجبه المتورم ويضغط على فكيه كأنه يطحن أسنانه !

كان صاحب المعطف الأصفر ، يوجه نظرات كارهة للأم ، ثم يستدير ينظر إلى سيد فى ضراعة كأنه يستنجده . . وأحس سيد بنظراته ، فالتفت إلى صلاح وقال له فى غيظ :

– وافرض أنك لا تعرف . . فكيف تتزوج أختى من غير علم أهلها ؟ . . هى مقطوعة ؟

أجاب صلاح :

– هو الحل الوحيد .

وقف سيد صارخاً :

– حل وحيد يا جبان ! بعيد عن شنبك !

ووقفا من جديد ، لكنا حلنا بينهما قبل أن يتماسكا ، وجلس كلاهما يلعق جراحه . . وقال صاحب المعطف لسيد :

– أنت عند كلمتك يا سيد .

رد عليه فى قوة :

– طبعاً . . أنا أعطيتك كلمة رجال .

ثم التفت ناحيتى وقال فى انفعال :

– على العموم . . الأمر فى يدك . . أى شىء تريده أنا مستعد لتنفذه . هنا

تنحنح المخبر وقال ببطء وهو يقلب يديه وينظر إليهما :

– طبعاً القسم . . لابد . . يعرف . . ما حصل .

التفت إليه سيد فى حدة ، وبغيظ ، دون أن يقول شيئاً . . ثم أدار عنقه وراح يحدق فى وجهى .

اقتربت نادية ، وطفلها الرضيع على صدرها ، ووقفت بين الحجرتين ، تسلط على وجهى نظرة مستطلعة مكتومة الأنفاس . . صلاح التفت ناحيتى ثم أدار عنقه بسرعة وطأطأ رأسه ، وانشغل فى مسح الدم عن شفتيه . .

استيقظ الطفل الكبير ، فوق السرير ، وجلس بجلبابه ذى الخطوط البدائية ، يحملق فينا باستغراب ، فقلت للمخبر :

– لما عدت لتفتيش دولاب الملابس عثرت على النقود .

تنهد سيد بصوت مسموع ، وجلس صلاح على إحدى ركبتيه ، وقالت نادية وهى تتراجع بطفلها :

– روح يا شيخ . . إلاهى يريح قلبك كما ريحت قلبنا !

فتذكرت سعاد ، وعادت لى حالة البؤس التى كانت تلازمنى قبل اكتشاف السرقة . . وتمنيت لو لم أعثر على أمينة لأهرب فى البحث عنها من نفسى !

* * *

١٢

توقفت بى سيارة الأجرة أمام بيتنا . . كانت أمى تطل من النافذة حين رأتنى . . قالت لى : إنها كانت تصلى ، وفجأة هتف بها هاتف بأننى فى الطريق إليها ، فمدت عنقها من النافذة لترى العربة تدخل بى الشارع . . تعانقنا طويلاً وأسمعتنى الكلمات الطيبة التى لا يسمعها الإنسان إلا من أمه . . وعرفت منها كل أخبار « البلد » :

سعاد تزوجت وقضت مع عريسها بضعة أيام فى فندق « سيسل » . . سعاد بنت أم سعاد ، الشحاذة بنت الشحاذة – هكذا قالت أمى – أوصلها الزمن المعكوس إلى أن تقيم مع عريسها – الشحاذ هو الآخر – فى فندق الكبراء !

قضيت يومين بالإسكندرية راقداً فى الفراش . . لم أزر أحداً من الأصدقاء ولم يعلم أحد بوصولى غير جيراننا الأقربين ، وغير أختى التى جاءت بأطفالها من « محرم بك » لتعيد ما قالته أمى عن « أصل » سعاد . . حتى أختى لم أره إلا قبل مغادرتى الإسكندرية بساعة واحدة .

وفى القاهرة وجدت فى انتظارى حشية ووسادتين وبضعة ثياب نسائية ، بعضها سماوى ، والكثير من أوانى الطبخ الجديدة . . وقال لى عباس : إن شقيق أمينة ومعه شاب آخر – عرفت من مواصفاته أنه صلاح – جاءا بهذه الأشياء وذهبا . . وقال يدافع عن أمينة إنه يعتقد أنها لم تكن تنوى السرقة . . كومت الملابس على السرير لغسلها ويبدو أنها فتحت صوان الملابس ؛ لتبحث

عن ملابس أخرى متسخة فعثرت على النقود « والشيطان شاطر » !

مرت بى عشرة أيام بالقاهرة لا أفعل شيئاً غير أن أهيم على وجهى فى الطرقات . . ضقت بالحانات ودور اللهو ونساء عباس ومدحت ففضلت أن أهيم فى الطرقات ! أركب سيارة أجرة وأطلب من سائقها أن يسير بى على غير هدى . . مائة جنيه أنفقتها فى أشياء تافهة خلال الأيام العشرة . . وعرفت أننى لو استمررت على هذه الحال ، فستبخر منى بقية النقود قبل شهر واحد ، لكننى لم أهتم . . إرادتى كانت عاجزة تماماً ولا أدرى بالضبط ماذا أريد ؟

فكرت للحظة أن أبعث ببقية النقود إلى أمى – التى لم أخبرها عن واقعة السرقة – لكننى عدلت . . حاولت أن أقيم علاقة عاطفية مع فتاة لكننى وجدت نفسى أنزع إلى الجنس كنوع من الانتقام من الجنس الذى تنتمى إليه سعاد ! وقلت لنفسى : إننى سأصبح عدو المرأة رقم واحد ، ولن أدخر جهداً فى التفريق بين أى حبيبين يوقعهما سوء الطالع فى طريقى . .

ولما رأيت مدحت قد نجح فى بيع ثلاثة أفدنة ، وشرع فى الاستعداد للزواج من ناهد ، شرعت بدورى فى تدبير خطة للحيلولة دون إتمام هذا الزواج . . لكن « عباس » سبقنى وحاول أن يثنى مدحت عن عزمه ، فلقى منه تردداً بين الإقدام على الزواج والإحجام عنه . .

وفى ركن الحجرة طالعتنى أشياء أمينة . . حقيبة اليد السماوية الأنيقة ، تتربع على قمتها كأنها تسند يدها على خدها وتتأمل عالمنا هذا غير المفهوم . . أمينة كانت صادقة مع نفسها . . أحبت « صلاح » فغامرت من أجله . . أرهبتها تهديدات أهلها ، لكنها لم تبهرها نقود « المعلم رشاد » كما بهرت سعاد . . عيب أمينة الوحيد أنها لم تدرس قانون البلاد كما درسه السيد شريف . .

كانت على بعد خطوات من حضن حبيبها ، فجئت أنت تنعق كطائر الشؤم وخربت عشها . . ثم من يدريك أن « سعاد » نفسها لم تقع تحت تهديد يشبه التهديد الذى تعرضت له أمينة ؟ . . هل نسيت انفجارات أمها العفوية تعلن عن سوء طالعها وزوجها الخامل الذى لم « يقفز » كما قفز « المقدام » السيد شريف ؟ . . ما الذى يدريك أن ركناً ما من أركان قلب سعاد لا يخيم عليه الظلام الآن وينغص عليها عيشها ؟ . . هل تذكر اليوم الذى قالت لك فيه : إنها مستعدة أن تسلمك نفسها إذا أردت أنت ؟ ذلك لأنها تثق فيك وأنها رهن إشارتك ؟ . . هل تذكر الحكايات اللطيفة التى كنت تحفظها كى ترويها لها ، فتفاجأ بالحكايات نفسها ترويها لك بعد أن حفظتها أو شيئاً قريباً منها ؟ . . هل تذكر الساعة من النهار التى كنتما تتفقان على أن تخبرا بعضكما بعضاً بما كنتما تفعلان فيها ، فتفاجآن فى أكثر الأحيان بأنكما كنتما تفعلان شيئاً واحداً تقريباً ؟ . . ساعة واحدة كانت كافية للجميع بين صلاح وأمينة ، فماذا لو تأخرت ولو ساعة ؟ . . هأنتذا قد فرقت بينهما ووجدت النقود فماذا فعلت بالنقود ؟ . . تبخرت منك فى دور اللهو وفى الحانات بحجة أنك « مصدوم » ولابد للمصدوم من أن يفعل هذا . . أليس كذلك ؟ . . أعتقد أنه حان الوقت لكى تعترف فيه لنفسك بأنك تافه !

* * *

الأم تجلس فى الكشك ، مشغولة ببيع سيجارتين لرجل عجوز مجلبب . . اتسعت عيناها حين لمحتنى ، وخرجت من الكشك مسرعة ودارت بيديها حول عنقى تضمنى إلى صدرها . . لم تنطق بكلمة واحدة . . ضمتنى وعادت فأطلقتنى ووقفت تتأمل وجهى وعيناها تطرفان وعلى وجهها تعبير فرح بدائى

ممزوج بالبلاهة . .

ابنتها الصغرى رأتنا فهرولت إلى البيت فى قفزات مرحة ، وعادت ومعها نادية . . أمسكتنى نادية من يدى بيديها الاثنتين ومالت إلى الوراء وصممت على أن « أتفضل » . . وأرسلت فى طلب أبيها ، وكان يوم جمعة فجاء الرجل . فوجئت به شخصية جديدة تختلف تماماً وتلك الشخصية الضعيفة المتخاذلة التى رأيتها يوم السرقة . . رحب بى فى شهامة ، وشدنى من يدى فى ثقة ، وأحضر ثلاثة مقاعد قش من المقهى القريب . . جلسنا خلف الكشك ، وأمامنا برميل مقلوب ، عليه صينية وزجاجة كوكا كولا ، وعلبة سجائر مفتوحة ، وموضوعة « تحت أمرى » .

جاء الطفلان ووقفا قبالتى صامتين ، ولما شجعتهما ، دخلا فى حضنى فى صمت وكأننى أحد أفراد العائلة الغائبين . . وتربعت الأم أمامنا على جوال مفروش ، تنظر إلينا باسمة . . وقالت لى نادية : إنها « زعلانة » منى جداً لأننى منذ « فترة طويلة » لم أزرهم . . ووضع الأب ساقاً على ساق ، ومضى يحدثنى فى ثقة ، عن خطته فى إرجاع الأرض العربية من إسرائيل . . من رأية أن نسارع باحتلال إنجلترا أولا ؛ لأن « الإنجليز » ناس مثل السوس ، وطالما هم موجودون ، فلن تنتهى مشاكلنا ! وكانت له آراء كثيرة من هذا القبيل فى القضايا العالمية ، لكن الغريب – كما قال – إن أحداً لا يأخذ بها !

وسألته عن « سيد » فقال لى : إنه سافر إلى محافظة « مطروح » فى محاولة للتسلل إلى ليبيا بعد أن حالت « السوابق » دون استخراج تصريح له . . وقال لى : إن « سيد » يشكر فيك طول الوقت ، ويقول : إنه لن ينسى جميلك . .

وبعد نحنحة طويلة وحرج – سألته عن أمينة . . فقالت نادية وكأنها تتنفس الصعداء :

– ربنا أراحنا منها .

ولما هززت رأسى مستفسراً قالت :

– زوجناها .

– من . . صلاح ؟

– المعلم رشاد !

بضعة قراطيس ورقية تتدحرج على يسار الكشك ، تصدر عنها أصوات كالحشرجة ، تصاحبها أصوات طبول ودفوف . . فى أعلى الجدار المقابل ، ما يشبه الشاشة السينمائية ، تقف أمينة بثياب العرس البيضاء بجوارها المعلم رشاد بمعطفه الأصفر يفتل شاربه وحولهما نسوة يزغردن وشموع . . فى الخلفية نساء متشحات بالسواد يلطمن الخدود ، وشفتا أمينة تقتربان شيئاً فشيئاً ، تنفجران لتقولا لى : «كنت تأخرت . . ولو ساعة !» وصوت المتشحات بالسواد يملأ الجدار بعد اختفائها التدريجى يتوسطهن السيد شريف .

تمت

رقم الإيداع	١٩٨١/١٧١٣
الترقيم الدولى	٠-٤٩-٧٣٤١-٩٧٧ ISBN

١/٨٠/٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)